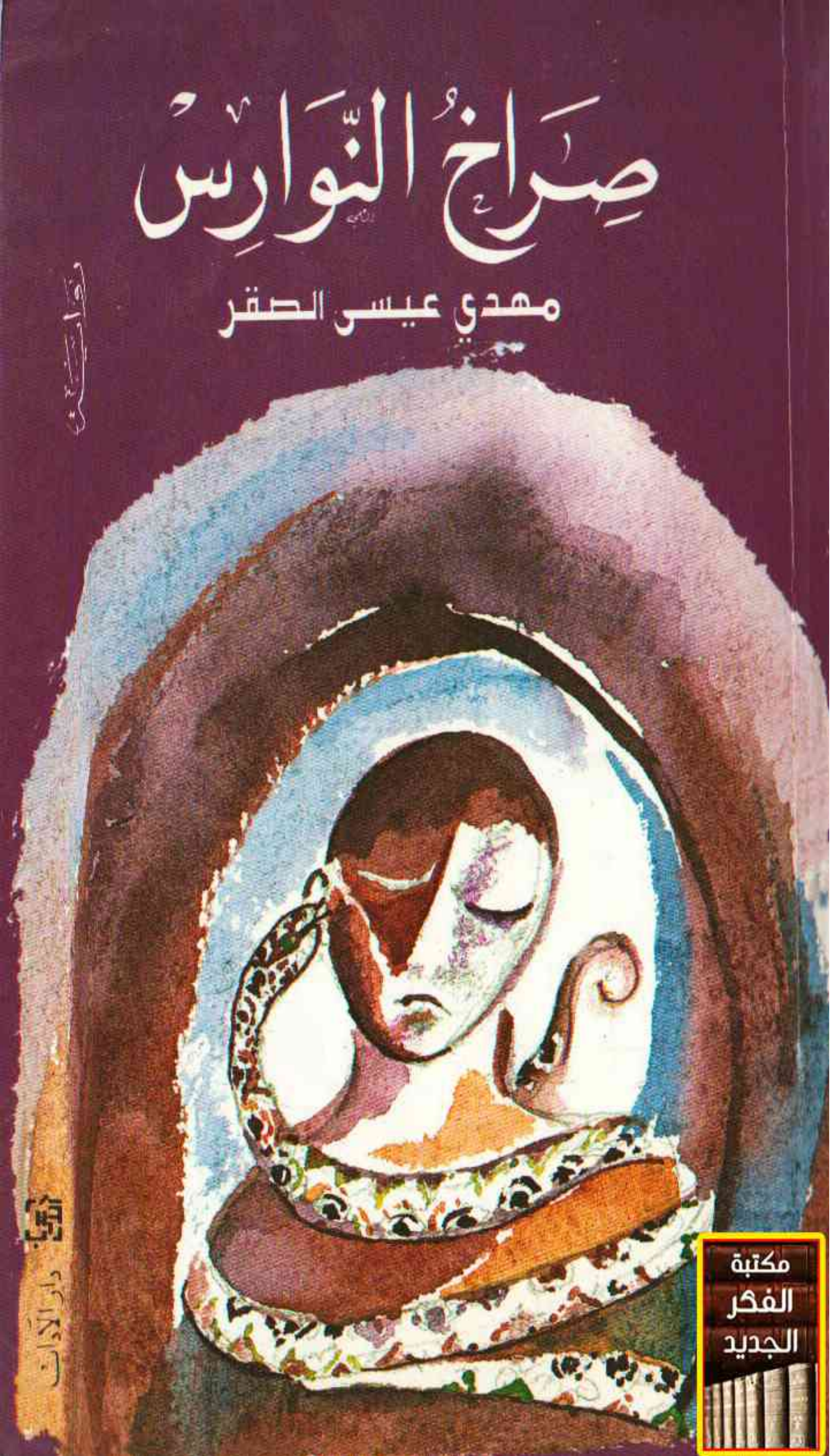


صراخ النوارس
مهدي عيسى الصقر

صراخ النوارس




مكتبة
الفكر
الجديد

مهدي عيسى الصقر

صراخ النوارس

رواية



الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩٧



-١-

أبي يجلس كلّ يوم على صخور الشاطئ، يجلس صامتاً لساعات طويلة، يحدِّق إلى الماء أمامه في شرود، لا يكاد يطرف له جفن، فأرنو إليه في حيرة، وأسائل نفسي: ترى ما الذي يدور في داخل هذا الرأس الرماديّ المهموم على الدوام!؟ في بعض الأحيان أسمعه يتكلّم، بصوت خفيض النبرة، وجهه شطر البحيرة، يخاطب – في هلوسات غريبة – الربّ في السماء، والأسماك اللابدة في اخضرار الماء، ويخاطب الريح والنوارس المحلّقة في الفضاء، صيحاتها الصاخبة اللجوجة تمزّق الهواء فوق رؤوسنا. وحين يفيق إلى نفسه يكلِّمني بلسان إنسان واع تماماً لما يجري في الدُّنيا من حوله. إلاّ أنّه، في الغالب، لا ينظر إلى وجهي حين يكلِّمني، رأسه مطرق، وعيناه المرهقتان تتأمّلان سطح البحيرة اللامع، والساكن تقريباً، بنظرات ساهمة. هكذا، منذ وفدنا إلى هذا المكان، نحن الأربعة، قبل نحو أسبوع – بقصد الراحة والاستجمام، وإراحة أعصاب أبي المكدودة (كما تقول أمّي) – يخرج هو إلى البحيرة فجر كلّ يوم، ويصطحبني معه، (يدخل عليّ غرفتي قبل أن يلوّن بياض



الفجر زجاج النوافذ، وتستعيد الستائر ألوانها التي محاها اللّيل، ويوقظني من متعة نومي اللذيذ، وأحلامي البهيجة التي تشبه الأفلام الخياليّة، التي أراها أحياناً على شاشة التلفزيون، بلمسة مترفّقة من أصابعه في البداية، يمرّ بها على خدّي، ثم، حين يجدني ماأزال متعلّقاً بالنوم، يهزّ كتفي بعظام أصابعه الخشنة، في شيء من الشدّة، هامساً، في هذه الأثناء، بالقرب من أذني، بصوت محشرج، نافد الصبر: «انهض انهض يا ولدي! انهض، تأخّرنا!» فنأخذ عندئذ طعام إفطارنا البارد، وبرّاد الشاي، أعدّته لنا أمّي منذ اللّيلة السابقة - فهي تكره أن تفارق فراشها المريح، في الساعات الأولى من النهار، كما أنّها لا تحب أن يدخل أبي إلى المطبخ وحده، فهو، بحركاته الخرقاء، ونوبات شروده، يتسبّب، في كثير من الأحيان، بتكسُّر الأطباق والأواني المنزلية، التي يتوجّب علينا أن ندفع أثمانها لمصلحة السياحة، عند تركنا للدار، في نهاية فترة الإجازة. (هي لا تقول مثل هذا الكلام أمامه طبعاً، لكي لا يتعكّر مزاجه المتقلّب، فيعمد إلى الإضراب عن الأكل والكلام، إنّما تقوله لنا وراء ظهره). وليس بوسعي أن أعاند رغبته في اصطحابي معه إلى البحيرة، فهو يراني أمله الوحيد في هذه الدنيا، وضوء أيّامه الباقيات، ومن أجلي أنا يتحمّل الهوان ومرارة العيش. إنّي أعرف هذا برغم صغر سنّي، لذلك لا أتذمّر، من أجل الاّ أسبّب له ألماً جديداً. وأحمل الشاي ولفائف الطعام، وعدّة الصيد، وأجرّر قدميّ بجواره، يخدّرني النعاس؛ ونمشي وحيدين، وسط السكون الوديع يخيّم على المكان برمّته، والنّاس مايزالون نياماً في أسرّتهم، داخل البيوت السياحيّة المبرّدة، لا نسمع غير وقع خطانا، والضربات الجافّة الصلبة لكعب



عصاه على إسمنت الممرّات المقفرة، وصيحات النوارس فوق الماء، بالقرب من ضفاف البحيرة، وعلى وجهي يمرّ نسيم الفجر، يحمل معه نداوة الماء، مع مزيج من عبق الحشائش والأشجار، ورائحة المطابخ (على الأرجح مطابخ الفندق، على الشاطئ البعيد، فساكنو الدور من السائحين لا يفيقون من نومهم في مثل هذه الساعة من النهار) تاركين وراءنا أمّي وعمّي ينعمان وحدهما بالنوم، وأحلام الفجر، وسط هدوء البيت، كلٌّ منهما في غرفته، يحتمي بدفء الأغطية الصوفيّة من برودة أجهزة التكييف، تواصل طنينها المكتوم، بين الجدران الصامتة. وحين نصل إلى الشاطئ أخيراً، بعد مضيّ بعض الوقت (المسافة ليست بعيدة، غير أنّ أبي يمشي بحركات بطيئة بسبب إصابته) أناوله عدّة الصيد، وأضع برّاد الشاي ولفائف الطّعام على الصخور، في المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه كلّ يوم. وأروح أنا بعد ذلك أتسكّع على مقربة، من أجل أن أحرّر جسدي المخدّر من بقايا النعاس، متأمّلاً، في هذه الأثناء، البيوت الهاجعة، والأشجار الواقفة في سكون، كأنّها مستغرقة في النّوم هي أيضاً (ترى هل تحلم الأشجار مثلنا!؟). وبناية الفندق، تشهق جدرانها صوب السماء المفتوحة، تقف شامخة وحدها على الشاطئ البعيد، وتجعل البيوت المتناثرة حولها في الأسفل تلوح مثل أعشاش بيض صغيرة تنام على وجه الأرض. وأتأمّل الشاطئ الرمليّ الفسيح، المنبسط تحت بناية الفندق، يترقّب في صمت مجيء السابحين والسابحات، حين تنهض الشمس، ويستيقظ النائمون تباعاً. وأعود لأقف أو أجلس على الصخور، بجوار أبي، أرقبه يرمي الشصّ في الماء، وينتظر بعد ذلك في صبر، ولا صبر أيّوب، الاختلاجة المباغتة



للخيط الأبيض المتهدّل قليلاً، الممتدّ بين أصابعه المترقّبة وأعماق المياه الساكنة، حين تشدّه سمكة جائعة تلوب في الأسفل بحثاً عن طعام. ونلوك نحن طعامنا، ونشرب شاينا صامتين، وابي غارق في خواطره وأفكاره. ويمضي الوقت ولا نشعر به، ثم يطلع علينا قرص الشمس متمهّلاً، من وراء البيوت الواطئة، ولا يلبث أن يصبغ بفيض أشعّته البيضاء وجه البحيرة الأملس والرمل وصخور الشاطئ والأرصفة والدروب وسقوف البيوت وأعالي جدران الفندق، وينير العشب الأخضر بين البيوت ورؤوس الأشجار، وهيكل أبي المتداعي، في جلسته الساهمة بمواجهة صمت البحيرة، وانغلاقها على ما في احشائها من اسماك، وحيوانات مائيّة مجهولة، غارقاً في لجج هواجسه وأفكاره الغامضة، لا يحسّ بجريان الزمن العجول، ولا بنبض الحياة من حوله، قبّعته القشّ الصفراء، بحافّتها العريضة، يحيط بها خطٌّ ازرق، تخفي شعر راسه انطفأ كلّه وغدا رماداً بارداً في وقت مبكر (ابي لم يبلغ الخامسة والأربعين من عمره بعد) وتطوّق بحلقة من الظل القاتم رقبته المتغضّنة السمراء (إنّي لأتذكّر الآن اليوم الذي اشترى فيه أبي هذه القبّعة العجيبة التي تشبه قبّعة فلاّح بائس من جنوب شرقيّ آسيا، إذ كنّا، نحن الأربعة، في سفرة قصيرة إلى شمال الوطن، في الصيف الماضي، بقصد النزهة، وقبل كلّ شيء من أجل صرف انتباه أبي عن أفكاره السوداويّة، وجعله يتأمّل في جمال الطبيعة، كما قالت ذلك أمّي (وهذا ما لم يحصل قطّ إذ بقي أبي على حاله من الشرود والكآبة، لم يتغيّر، ولم تؤثّر فيه مشاهد الطبيعة في الربيع) ولمح أبي هذه القبّعة (التي يرتديها الآن جالساً على صخور الشاطئ) معروضة في دكّان صغير، على



ناصية الشارع، في بلدة "آلتون كوبري" يبيع صاحبه للمسافرين، يمرّون من ذلك الدرب، في طريقهم إلى سفوح الجبال، المراوح والسلال وأقفاص الطيور، فراقت له القبّعة واشتراها في الحال، لم يسأل عن الثمن. ومنذ ذلك الحين لم يخلعها أبي عن رأسه إلاّ في ساعات النوم، وعند الاستحمام - كأنّها تعويذة مباركة كتبها له شيخ مكشوف عنه الحجاب، يأمل أن تبعد عن دربه شرّ النّاس، والأيّام الغادرة، وتعيد إليه عافيته، وحبٌ امرأته، وتهبه الخير الوفير لما تبقّى له من العمر، بعد خراب البصرة (ولكن هيهات!). وهو لا يكترث لابتسامات عمّي الساخرة، يرنو إليه، من وراء زجاج نظّارته السوداء، ولا لانزعاج أمّي، وشعورها بالحرج، أمام نظرات الاستغراب تلحظها في عيون الآخرين، خصوصاً إذا كان الوقت ليلاً، ولا لما يعتقده فيه النّاس من خروج على مألوف عاداتهم. وأدنو منه، وأقف وراء ظهره فلا يتحرّك، بل يظلّ على سكونه المترقّب، ظهره الهزيل يتقوّس، وعظام صدره تكاد تلامس ذراعه الممدودة بخيط الشصّ فوق ركبته (تقول أمّي إنّهم عطبوا له عموده الفقريّ عندما كان يحارب، لهذا تراه يا ولدي إذا مشى يتأرجح مثل نبتة في وجه الرِّيح، تساعده عصاه على الثبات قليلاً، يحرّك خطواته خطوة متأنّية بعد خطوة، وأفقدوه عقله في قفص الأسر - تقول أمّي - فراح من يومها يهذي، ويبتدع أناساً يتمثّلهم واقفين، أو جالسين أمامه، يحاورهم، ويفتعل أحياناً النزاعات معهم، كما تراه يخاطب الطيور وأحجار الطريق، فلا تُصْغِ إليه إذا كلّمك عَلَيّ، فهو ليس في كامل وعيه، رجل كثير الظنون، يتوهّم أموراً شنيعة لا أساس لها، إنّما هي محض تصوّرات حمقاء يفرزها عقله المختلّ). ولا أدري

لماذا تقول لي أمّي عنه مثل هذا الكلام، مع أنّ أبي لم يتحدّث أمامي بأمور مشينة عنها قط. ويقول هو - ونحن على شاطئ البحيرة في أوّل النهار- «أريدك يا ولدي أن تذهب الآن إلى البيت لترى ما الذي تفعله أمك في هذه الساعة من النهار». ويومض في ذهني، على الفور، مشهد ما جرى في ذلك اليوم الذي دخلت فيه البيت في ساعات الضحى، من دون أن يشعرا بي - أقصد أمّي وعمّي - إذ كان باب الدار موارباً حين عدت من الشاطئ، حاملاً برّاد الشاي الفارغ (لعلّ أمّي خرجت تنشر الغسيل - رأيته يتهدّل ندياً على الحبل الممدود في الشمس، بين جذعي شجرتين أمام الدار - ونسيت بعد ذلك أن توصد الباب حين عادت إلى البيت). دفعت الباب ودخلت بهدوء، فلم ينتبه أحد. أدهشني أنّ الاثنين كانا معاً في الغرفة التي ينام فيها أبي مع أمّي. كانا يتحدّثان بصوت لم يكن خفيضاً فسمعت ما يقولان (هكذا بلا قصد منّي، والله العظيم، إذ كيف يخطر ببالكم أنّني اتجسّس على أمّي). وكانت كلمات قليلة تلك التي سمعتها ذلك اليوم، وبقيت بعد ذلك حائراً في تفسيرها، ففي البداية جاءني صوت أمّي، متردّداً، مدحوراً.

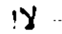
- وماذا تريد منّي أن أفعل!؟.

- واجهيه بالحقيقة.

كان في صوته ما يشبه الأمر، وكثير من نفاد الصبر.

- ماذا تعني!؟

- يجب أن يعرف أن..



- لا!



صوتها اليائس، المدحور، يغدو - على حين غرّة حاداً، عالي النبرة، وهي تقاطعه بشراسة أمّ تدافع عن فراخها.

- ما تطلبه منّي مستحيل.. مستحيل!.

ويرين على الغرفة، بعد ذلك، صمت متشنّج يمتدّ لحظة طويلة، ثمّ يجيء صوته مهادناً هذه المرّة.

- طيّب، إذن دعيني أنا أتصرّف.

- وماذا تريد أن تفعل!؟

صوتها المتسائل مضطرب ومذعور.

- لا أدري الآن. سوف أجد حلاً.

بعد لحظات، أفاجأ بعمّي يخرج من الغرفة. حين يراني واقفاً في الصالة، مرتبكاً، لا أعرف ماذا أفعل بنفسي، يباغت بوجودي، ويتوقّف في مكانه لحظة صغيرة، إلاّ أنّه لا يغضب منّي، مثلما كنت أخشى. يدهشني أن أراه يبتسم في وجهي بمودّة، مقبلاً صوبي، نظارته السوداء تخفي وميض عينيه.

- أنت هنا!

وينحني عليّ بقامته الطويلة، يضع يديه الكبيرتين على كتفي، كلّ كف على كتف، ويتأمّل وجهي بإمعان، كأنّه يكتشفني أوّل مرّة، علائم الزهو تلوح على وجهه. وأشعر بنفور منه، وأودّ لو يتركني ويمضي، غير أنّ وجهه المبتسم يظلّ معلّقاً فوقي بعض الوقت، عيناه، من وراء الزجاج، تتفحّصان ملامحي، أنفاسه العابقة برائحة السجائر تضايقني.



- لماذا تركته وجئت في هذه الساعة؟

يكلّمني بصوت خفيض، كأنّ بيننا سرّاً مشتركاً.

- أبي يريد مزيداً من الشاي.

- أبوك!؟

تخبو الابتسامة على وجهه، ويرفع صوته في حدّة واستنكار، من دون أن يلتفت صوب الحجرة التي تنزوي فيها أمّي وحدها.

- تعالي خاتون! هذا ابنك.. يقول أبي يريد مزيداً من الشاي.. أبوه!

ويسقط كفّيه عن كتفي، ويغادر الدار مغضباً، لا أدري لماذا، قبل أن تخرج أمي من الغرفة. وأظلّ انتظرها في خوف، قلبي يضطرب. ويصدمني مشهد وجهها ومشيتها وهي تخرج من إطار باب الغرفة، بعد قليل، وتتقدّم في الممرّ، مثل شبح يجرّر قدميه، بوجه غاضت منه الدماء، وعينين فقدتا بريقهما المألوف.

- ما الذي جاء بك الآن!؟

- أبي يريد..

ولا أقوى على إكمال جملتي، وأنا ارى القنوط في عينيها. أمدُّ لها يدي ببرّاد الشاي الفارغ، متحاشياً النظر إلى وجهها، فتأخذه من يدي.

- ومتى دخلت إلى البيت؟

تحيّرني نبرة صوتها الخالية من أيّ انفعال تقريباً، إذ أسمعها تتكلّم في شرود، كأنّها مخدّرة.



- دخلت قبل قليل.

تتلفّت حولها كأنّها تبحث عن شيء، أو أحد، ثم تعود بنظراتها الشاردة إلى وجهي، ملامحها واجمة.

- كيف دخلت!؟ أبوك أعطاك مفتاحه، وقال لك اذهبْ وانظرْ ماذا تفعل أمك!؟

- لا، وجدت الباب مفتوحاً.

ترنو إلى باب الدار ساهمة.

- وهل.. هل سمعت شيئاً!؟

- بعض الكلمات، لم أفهمها. ماذا كان يريد منك عمّي؟

تتجاهل سؤالي. تستدير، وتمضي صوب المطبخ صامتة. أتبعها مذهولاً فتلتفت منزعجة.

- لا تتبعني أينما تحرّكت!

أجلس في الصالة أنتظرها تعدّ الشاي. أسمع حركتها في المطبخ. بعد ذلك أحمل برّاد الشاي الذي ازداد ثقلاً وأرجع به إلى أبي. أراه سعيداً، منبسط الوجه.

- اصطدت سمكة في غيابك!

يقول لي في حماس.

- ثم أطلقتها، فغاصت في مياه البحيرة مسرورة!

ولا أستطيع أن أجاريه في حماسه وفرحته؛ فكري منشغل. ألمس ذراعه بعطف ومحبّة، فيلتفت بوجهه السعيد صوبي.



– هل تريد أن تقول شيئاً يا ولدي؟

– لا، لا شيء.

ماذا اقول له!؟ ما سمعته من كلام في البيت كان حديثاً ناقصاً وغامضاً، عن سرّ يريده عمّي أن ينكشف، في حين ترفض ذلك أمّي بشدّة لأسباب لا اعرفها، لأنّي اجهل سرّهما، وأنا لا اريد أن أزيد من عذابات أبي بجعله يرتاب في إخلاص أمّي. (إنني أسأل نفسي احياناً – بعد كلّ هذه السنين – ترى لو أنّني أخبرته بالكلمات التي سمعتها بالمصادفة، في ذلك اليوم، أكان حدث الذي حدث في ما بعد!؟ من يدري!؟ ربما ما كان شيء تغيّر على أيّة حال). وإذا كانت أمّي غفرت لي دخولي البيت متسلّلاً، مثل لصّ – كما ظنّت هي – ووقوفي في الصالة ساكناً، اتسمّع لما يقولان، فإنّها لن تغفر لي ذلك مرّة أخرى، إذا ذهبت الآن اتجّسس عليهما، كما يريدني أبي أن افعل. لذلك حين يطلب منّي أن اذهب إلى البيت، في هذه الساعة، لأرى بماذا تشغل أمّي نفسها، لا أفارق مكاني، بل أظلّ واقفاً وراء ظهره، أنتظر في صبر يماثل صبره اختلاج الخيط في يده، واهتزاز صفحة الماء. ولا اقول له إنّي أخشى الدخول على أمّي هكذا، قبل الموعد اليوميّ لعودتنا من البحيرة – أي عند منتصف النهار – حين تكون أمّي فرغت من إعداد الطعام، وحان وقت جلوسنا معاً، نحن الأربعة، حول المائدة في المطبخ. فيقول لي أبي «إذن لا تقف هكذا وراء ظهري. تعال اجلس بجانبي، ولا تحدث صوتاً». تقول هي (كما اتذكّر الآن، كأنني اسمعها تتكلّم بجواري): «إنّ اباك ما عاد رجلاً، منذ اليوم الذي أصيب فيه بذلك الجرح الشنيع في أسفل عموده الفقريّ». ولا أفهم ما تعنيه بقولها «ما عاد رجلاً»، فنبرة صوته



الخشنة لم تتغيّر، كذلك شارباه بقيا في مكانهما، وإن اصبحا الآن بلون الرماد (فأنا صبيٌ في الثالثة عشرة من العمر، مازلت اجهل الكثير من أسرار الحياة التي يعيشها الكبار). وعندما ترى حيرتي يحمرّ وجهها، وتهرب بعينيها من نظراتي المتسائلة، تطوف بهما على الجدران وقطع الأثاث. ولا الحّ عليها بالسؤال، لأنّني احسّ انّها لن تقول أكثر ممّا قالت. لذلك اترك الموضوع معلّقاً عند هذا الحدّ ويأتي – بعد أعوام – اليوم الذي أدرك فيه بوضوح مغزى كلماتها التي بدت لي غريبة. ويزداد، في هذه الأثناء، عطفي على أبي، ما بقي له من أيّام يعيشها، ويزداد سخطي عليها. وأتحرّك من مكاني وراء ظهره، واجلس بجواره، كما طلب منّي. واحسّ صلابة صخور الشاطئ تحتي، عيناي تتأمّلان جانب وجهه الساهم. (ترى هل يعرف هذا الرّجل انّ حبّه المفرط لي يضع في رقبتي ديناً ثقيلاً لا بدّ من سداده، مهما كان الثمن – عندما اصبح أنا نفسي رجلاً!؟) ويفيق من شروده، إذ يستشعر وقع نظراتي المتأمّلة على لحم خدّه، ويتكلّم بصوته الخفيض النبرة (الذي يتكلّم به مع نفسه، ومع الآخرين، حين يكون جالساً في مواجهة صمت البحيرة) «انا أعرف، يا ولدي، السبب الذي يجعلك تمتنع عن الذهاب إلى البيت، في مثل هذا الوقت. أنت تخاف أن تغضب عليك أمّك. ولكن أنت فقط اصبر قليلاً، وانا أعدك بأنّه سيأتي اليوم الذي يتبدّل فيه هذا الحال، إن شاء اللّه». (ويتبدّل الحال سريعاً في ما بعد، ولكن بشكل ما كنت اتوقّعه انا قطّ، ولا اظنّه كان يفكّر فيه، او يتمنّاه). ويواصل ابي التحديق إلى الخيط الساكن، الهابط من بين اصابعه إلى عمق مياه البحيرة. وتغمرنا الريح، ورائحة الماء الذي يسخن تحت اشعّة



الشمس، مخلوقين صغيرين - أباً معوقاً وابنه - يقبعان جنباً إلى جنب، في صمت حميم، متفاهمين ومتّحدين ضدّ كلّ شرور الدنيا وآثامها، وإن لم يتبادلا الكثير من الكلمات. ويصرخ نورسٌ جائع، خافقاً بجناحيه فوق رأسينا، ثم يهبط، مثل نيزك صغير، ويضرب سطح الماء محدثاً فيه اضطراباً، وما يشبه ثقباً تتوالد حوله دوائر رجراجة تتّسع لتتمزّق بعد ذلك، الواحدة وراء الأخرى. وينهض الطائر، في هذه الأثناء، صاعداً في زرقة الفضاء، قطرات من الماء الشفيف تتساقط من منقاره المبلّل، وتلمع في الشمس، وهو ينعطف في طيرانه العجول ميمّماً شطر الساحل الآخر، دون أن يصطاد شيئاً كما يبدو. ويستعيد سطح الماء صفاءه المتألّق، في الموضع الذي أسقط فيه الطائر نفسه قبل لحظات. وينبض صوت محرّك زورق بخاريّ يقترب منّا (يرنو إليه أبي في انزعاج، لما يثيره من ضجيج واضطراب في البحيرة يجعلان الأسماك تتشتّت مذعورة) ويمرق الزورق من أمامنا يشقّ وجه الماء، على سطحه حشد من الوجوه الضاحكة. ومن بعيد، على الشاطئ الرمليّ الشاسع، المنبسط تحت بناية الفندق السياحيّ، بطوابقه العديدة، وصفوف نوافذه الضيّقة، أرى هياكل السابحين والسابحات، في لهوهم اليوميّ، أجسادهم العارية تقريباً تستلقي، أو تجلس على الرمال، في أوضاع مختلفة، أو تتحرّك من مكان إلى آخر. ألمح الرؤوس السود للعديد منهم تطفو فوق سطح الماء، بالقرب من الشاطئ، إلاّ أنّني لا أستطيع سماع صياحهم ولغطهم النائي - كأنّني أشهد فيلماً صامتاً، تجري أحداثه على شاشة هائلة بعيدة - وأبي لا يبدو مكترثاً لما يفعله النّاس، أو تفعله الطبيعة. وأسمع أخيراً صوته



الســـاهم بجـــواري: «يا ولدي اريدك أن تعـرف بـأنّك لست انا
المقـصـود، فـي أغلب الأوقـات، بنوبات الـغـضـب التي تسـيطر على
كياني، ولا أقوى على التحكّم فيها». إذن فلست انا المقصود بنوبات
غضبه المجنونة، إذ كان، أحياناً، يمسك بعصـاه من وسطها، ويقول
لي، بلا سبب واضـح: «هات يدك اليمنى!». فأحبس صـيحات التوجّع
في صـدري، عيناي الخـائفـتان على وجـهـه المتـاع، وهو يقـبع على
حافّة السرير بظهره المعطوب. «والآن يدك الثانية!» صوته يتهدّج
في صراع مع نفسـه ربّمـا - في حين ترتفع عـصـاه، وتهبط، وانا
أعضّ على شـفـتي، ويدي تمتـدّ متـردّدة ثم تنسـحب ملتـهبة، وهمـا
هناك، ينظران ولا يتكلّمان؛ هـي تجلس على مقعد في زاوية الحـجرة،
اكملت زينتها في الصباح، تتأمّل المشهد صامتة، وفي عينيها حزن
عـاجز، وهو - عمّي - يقف مسـتنداً بكتفه إلى قـائم الباب، مزموم
الشفتين، مكفهرّ الوجه، عيناه تتواريان خلف زجاج نظّارته السوداء،
يلبسـهـا ليل نهار، ولا صـوت يعلو في سمـاء الغرفة، غـير ضـربات
العـصـا على لحـم يدي المنبـسطة الأصـابـع. وأرى الدمـوع تلمع في
عيني ابي، في كلّ مرّة يضربني فيها. امّا انا فـأكابد حـرقة الألم ولا
ابكي أمامـهم، بل أحـبس دموعي لأذرفـهـا في وقت آخر، بلا رقيب،
وانا اجلس على سريري في صمت الغرفة، في سـاعة متـأخّرة من
اللّيل، بعـد أن يهـجـع من في البـيت، أو ألوذ بمكان منعـزل من
الشـاطئ، أنشج في عـتـمة المسـاء، جـالسـاً على الصـخـور وحـدي،
بعـيداً عن دروب المتنزّهـين وعشّـاق اللّيل، أحـدّق إلى سكون الماء،
واجـهـد للانفـلات من إسـار جسـدي - مـوطن التـمـزّق والألم -
والتلاشي في ميـاه البحيرة، حـائراً في تفسير سلوك أبي الغريب



(أهو مـختلّ العـقل حقّاً، كمـا تزعم أمّي، أم أن في حياته أسراراً موجعة تجعله يتصرّف بهذا الشكل المحيّر!؟)، إذ كان كلّما ينتهي من عقـابي على ذنب لا أدريه (هو دائمـاً يجد لغضـبه أسباباً يقنع نفسـه بهـا على أيّة حـال) أراه يمدّ يده إلى جيبه، عيناه النديّتـان تفـيضـان حزناً وهمـا ترنوان إلى وجـهي المحـتقن «خذ هـذا ابني، واذهب اشترِ به لك شيئاً تأكله، أو إذا أحببت أصرفه على الملاعيب في الفندق»، يكلّمني بصوت مـخنوق، كأنّ حـجـراً يسدّ عليـه منافذ الهواء، فأنظر إلى وجهه المعذّب متردّداً، في حين يدسّ هو النقود في يدي، فـلا أقوى على إطبـاق أصـابعي عليـهـا. وفي كلّ مرّة - فـهي امرأة لا تعرف اليـأس إطلاقاً - تدعوني أمّي، بإشـارة من رأسـهـا، ونظرات عينيها، أن أدنو منها فتضع رأسي على صـدرها، يفوح منه عـبـيـر العطر، ورائحـة المرأة التي أشـبـعت كلّ حـاجـات الجـسـد، وجلست بعد ذلك تسـتـريـح. (أكتب هذه السطور وأنا الآن إنسـان أكمل الكثيـر من النواقص في المعرفـة المحدودة للصبيّ الصـغيـر الذي كنته، بخبرة الرِّجال، زوّدتني بهـا الأيّام، ورفقة الأقران) تفعل أمّي ذلك من أجل أن تواسيني، وتنفخ بأنفاسـها الدافئة على راحتيّ المشتعلتين ليهدأ الألم قليلاً، ولكي تظهر لي - بهـذا الحنان الأموميّ - أيّة أم وديعة ورؤوم هي، وأيّ أب معتوه وجلاّد هو، لعلّي أصدِّق، في النهاية، مزاعمها عن اختلال عقله، وغرابة أطواره، وأقف بالتالي في صـفّـهـا، في حـربهـا الصـامـتـة ضـدّه. إلاّ أنّني أتجـاهل إيماءة رأسـهـا، والنداء الضـارع في عينيـهـا الحـزينتين، وأحمل أوجـاعي، وأتركـهم في صـمـتـهم المشـدود، وأغـادر الحـجـرة، أغـادر الدّار، لا يعذّبني وجع العصـا بقدر مـا تعذّبني الحيرة. وأكتشف بعد سنين



(حين أوشك أن أتزوّج – وأنا مازال طالباً في الكلّية من زميلة لي تحبّ الشعر والروايات العاطفيّة) أنّ ما يقوله ويفعله الآخرون ليس هو، في الحقيقة، كلّ الحقيقة. غير أنّ أبي هو الإنسان الوحيد، من بين هؤلاء الثلاثة (فهما يضربانني أيضاً) الذي لا أشعر نحوه بالكراهية والنفور، إذ إنّني أراه يبكي وهو يهوي بعصاه على يدي. أمّا أمّي وعمّي فإنّ عيونهما، حين يضربانني، تبقى خالية من الحنان، لا يلمع فيها غير الغضب المجنون.

إذن فلست أنا المقصود بنوبات غضبك المسعورة، يا أبي، فمن هو المقصود!؟ أضع يدي على ظهره بمودّة فيجفل.

– لا ابني. لا تتحرّك!.

ألمح اختلاج الخيط بين أصابعه المتحفّزة، ولجزء صغير من الثانية ينشدّ الخيط قليلاً، ثم يرتخي، كأنّ يداً غير مرئيّة، في أعماق البحيرة، سحبته ثم أطلقته. ويلتئم وجه الماء، وخيط الشصّ ينفذ فيه، مثل سلك رفيع لا تلبث أن تضيع نهاياته في الاخضرار المعتم. ينتظر أبي قليلاً، إلاّ أنّ الخيط يظلّ على سكونه، لا تعتريه رعشة أخرى، فيرفع أبي، عندئذ، يده ويضعها فوق ركبتي، فأشعر بها خشنة ويابسة، غير أنّها تحمل حناناً لا حدود له؛ بوسعي أن أستشعره في استقرارها المطمئنّ على رجلي، كأنّها حيوان صغير أليف، يغفو سعيداً على شجرة راسخة الجذور.

– ذهبت، ولكنّها سوف تعود مرّة أخرى.

يقول كلماته بثقة من يعرف طبيعة الأسماك. هو يرنو إلى الماء في شرود، فبعته القش الواسعة – التي نفتها أمي – تستقرّ على



رأسه، حوافُّها بدأت تتهرّأ من الاستعمال ولفح الشمس، تلقي بظلالها على وجهه، يلوح أشدّ سمرة من قبل. وسوف يظلّ أبي على جلسته هذه ساعات وساعات، وأنا حبيس حبّه لي، قابعاً بجواره على الصخور، لا أستطيع أن أتركه وحده، بلا معين، وهما هناك وحدهما، بين صمت الجدران، سرّهما اللعين ينخر في قلبي، لساني مشلول، وهو منشغل، في هذه الأثناء، بلعبته الحمقاء هذه، لا أفهم لها معنى، فهو ينتظر بلا ملل مجيء سمكة طائشة تعلق بشصّه الغائص في البحيرة، ليجرّها بعد ذلك إلى خارج الماء، يتأمّلها تلبط جزعة في الهواء المميت، مصلوبة في نهاية الخيط المبلول الذي يتأرجح في يده، وحديدة الشصّ تشقّ حافّة فمها الفاغر، ويمسك بخصرها الأملس، تتلوّى تحاول الإفلات من بين أصابعه اليابسة، وهو يبتسم ويناغيها، محدّقاً إلى حوافّ فمها المفتوح، يبحث عن آثار جراح أحدثتها محاولات صيد سابقة. وبعد ذلك يعمل بحذر على تخليصها من ورطتها التي أوقعت نفسها فيها، بدافع الجوع، وغبائها الذي لا شفاء منه، ثم يرمي بها صوب البحيرة متنهّداً، فتتقلّب في الهواء مشدوهة، جسدها الأبيض المبلّل يلصَف في الشمس، لتسقط بعد ذلك في الماء، وتختفي في أعماقه الأليفة، لا تصدّق أنها غدت طليقة مرّة أخرى. (سمعت أمّي تقول له مرّة: «ليتك تعاملني مثل واحدة من سمكاتك، فتطلقني أنا أيضاً، أذهب لحالي!» فيرنو إلى وجهها واجماً ويومئ برأسه صوبي: «والولد!؟» فتقول له: «وما شأنك أنت بالولد!؟» فتندّ عنه ضحكة صغيرة – ولكنّه هل ضحك حقّاً وقتها، أم هل أصدر نشيجاً يشبه الضحكة!؟ – ويسألها: «أليس هو ابني!؟» ولكنّها تتجاهل سؤاله، وتستدير



وتمضي بصمت، فأهرع إليه، ألفّ ذراعي حول خصره، في دورة حب وامتنان، ونفوري منها يتعاظم). وهكذا يظلّ أبي طوال ساعات جلوسنا على شاطئ البحيرة، كلّما اصطاد سمكة أطلقها. ولا أفهم أنا الصبيّ الصغير، الحكمة من وراء هذه اللعبة يلعبها أبي كلّ يوم على شاطئ البحيرة. وعندما تأخذ الشمس مكانها فوق راسينا، ويشتعل الهواء، يسحب أبي خيطه المبلول من مياه البحيرة، يلفّه بأناة، وأحمل أنا بعد ذلك عدّة الصيد، وبرّاد الشاي الخالي، وكيس الطعام الفارغ (تصرّ أمّي على أن نعود به معنا؛ إمرأة مدبّرة هي، بوسعها أن تدبّر كلّ شيء!) ويتعكّز هو على عصاه، ونعود إلى البيت، فأحاول دفعه إلى الكلام، فيجيبني ولا يجيبني. وحين نغدو على مسافة قليلة من البيت، أشعر بها - قبل أن أراها - تقف وراء النافذة المطلّة على البحيرة، ترقبنا نمشي جنباً إلى جنب، متمهّلين بسبب عجز أبي (أظنّها تحقد عليه بسبب عجزه، وأيضاً لاستئثاره بي، تظنّه ينتزعني منها. ولعلّها - أقول لنفسي - تودّ لو شاركتنا جلساتنا اليوميّة الحميمة، على صخور الشاطئ، تكتشف السرّ في هذه العلاقة التي تربط بيننا بشكل فريد). وأشعر، ونحن نقترب، أنّ عمّي يقف بجوارها، يرقبنا هو أيضاً، من وراء زجاج نظارته السوداء، ويتحدّثان عنّا ندنو من البيت ببطء. ويتحقّق ظنّي، إذ ألمح القامتين، الشاخصتين وراء النافذة، تفترقان بسرعة، مع اقترابنا من الباب، فتذهب هي تنزوي في المطبخ، تشغل نفسها بالمتطلّبات الأخيرة لوجبة الغداء، في حين يدخل عمّي إلى غرفته، يرفع صوت المذياع يملأ به جو البيت ضجيجاً يغطّي (في اعتقاده ربّما) على كلّ الظنون. ولا أدري، وأنا أمشي بجوار أبي، عائدين إلى البيت، ما إذا



كانت الخواطر التي تتحرك في رأسه تشابه ما يدور في بالي، فهو لا يبوح لي بشيء ممّا يعتلج في صدره بهذا الخصوص، ويتابع مسيرته المتأنِّية مطرقاً، يتفحّص مواضع قدميه على أسفلت الممرّ الضيّق، معتمداً على عكّازه، بقبّعته الغريبة، وظهره المنحني. ومن نثار الكلمات، أسمعها منه أحياناً، تنفلت وحدها بين فوضى هلوساته، جالساً على الشاطئ يخاطب الماء أو السماء، أدرك أنّ ابي لا يجهل تماماً تفاصيل ما يجري وراء ظهره، غير أنّني حتّى هذا اليوم (وأنا أبوح بهذا الاعتراف) لا أعرف السرّ المحيّر الذي جعله يمتنع عن اتّخاذ موقف حاسم يضع فيه حدّاً للعذابات التي يعانيها بصمت بينه وبين نفسه. (أمن أجلي أنا كان يتحمّل المهانة والألم!؟)

إنن هذا هو طقسنا اليوميّ، ابي وأنا، منذ مجيئنا إلى البحيرة، نحن الأربعة .نغادر البيت في الساعات الأولى من الفجر إلى الشاطئ، من أجل صيد السمك، ثم نعود بلا صيد، حتى يجيء اليوم الذي يباغتني فيه بفعلته غير المتوقعة، والتي ستكون المقدّمة، والذريعة أيضاً، لمأساة لاحقة شطرت حياتي إلى الأبد.

-٢-

نحن الآن نجلس على الشاطئ في يوم آخر. لم يبقَ على موعد عودتنا إلى البيت غير ساعة، أو اقلّ (إنّي أقيس الوقت بحركة الشمس والظلال، فأبي لا يحمل معه ساعة أبداً. يقول إنّه ليس به حاجة إلى آلة تخبره بأنّ الزّمن يفرّ منّا). يرفع أبي رأسه عن الخيط النازل في الماء، ويحدِّق إلى وجهي.

- يا ولدي، من الخير لك الاّ تعرف شيئاً.

ولا أدري عن أيّ شيء يتكلّم، صوته الخفيض النبرة، المفعم بالحنان، مثل همهمة لا تلبث أن تخطفها الرِّيح، وتبدِّدها فوق سطح البحيرة، ولا يتبقّى منها غير صدى كلمات مهمومة، لا تريد أن تبرح راسي، بعد أن راح هو في ظروف غامضة.

- ... من الخير الاّ تعرف شيئاً، فأنت ماتزال صغيراً.

عيناه الحزينتان تطيلان التحديق إلى وجهي.

- أنت في العاشرة الآن.

- في الثالثة عشرة يا أبي!.



– نعم نعم، مثلما تقول. مع ذلك أنت ماتزال صغيراً على الألم، لذلك دع قلبك يبقَ نقيّاً، من أجل أن تنعم بشيء من الرّاحة مع نفسك.. مع نفسك. سوف تتعذّب بالطبع، في ما بعد، ولكنّ لكلّ شيء ثمناً يا ولدي.

ويعاود ابي النظر إلى وجه البحيرة المتألّق، ثم يمسح يده الأخرى على وجهه، وأسمعه يرتّل، في خشوع، كأنّه يصلّي: «قل ربّي يا خالق القاتل والقتيل، إذا شاءت إرادتك، التي لا رادّ لها، أن تفتح بصري وبصيرتي، لأشهد الحقيقة في كامل عريها المخزي، فافعل ذلك بي قبل نزول البلاء، لا بعد نزوله، وإلاّ فدع عبدك العاجز، الذي لا حول له ولا طول، الفقير إلى رحمتك ورضوانك، يَعِشْ أيّامه الباقيات هانئاً في نعيم جهله، مطمئنّ القلب والرّوح، وسط الرزايا والنائبات، حتّى يحلّ اليوم الموعود، الذي تستردّ فيه أمانتك، ملفوفة بردائها الأخير، من لظى هذه الدار الفانية، إلى دارك الباقية أبد الآبدين، إنك أرحم الراحمين!». وأعرف عندئذ أنّ أبي فارقني ليضيع في لجج هواجسه وهلوساته. في هذه الأثناء يواصل قرص الشمس صعوده المتأنّي في السماء. ويحلّ علينا الضحى، ويتألّق وجه البحيرة، والهواء يفوح بعبق بخار الماء المالح، وشذا العشب، والأشجار المزروعة على جوانب الممرّات، وبجوار الأرصفة، وفي الحدائق بين البيوت. والشاطئ الرمليّ الفسيح، تحت بناية الفندق، يمتلئ بالأجساد شبه العارية، في لهوها اليوميّ، تتمدّد على الرِّمال، أو تتحرك بين الشمس والظلال. والماء بالقرب من الشاطئ المبلول يضطرب، ترقّطه رؤوس السابحين، في حين يبقى الماء القريب من الصخور التي نجلس عليها، أبي وأنا، ساكناً، تصنع فيه



نسمات الرِّيح التي تمرّ وادعة على وجه البحيرة، رفيفاً لا يكاد يبين والصراخ المرح البعيد يتلاشى في الهواء، قبل ان يبلغ شاطئنا المهجور. (كم أتمنّى لو ذهبت أسبح بين ذلك الحشد اللاهي، غير أنّني لا أستطيع ان افارقه، واظلّ جالساً بجواره أتأمّل البحيرة وأنتظر) وعلى سطح الماء اللامع في الشمس – في منتصف البحيرة تقريباً – تحطّ مجموعة من النوارس، في ما يشبه الدائرة، نقاط بيض صغيرة تطفو متقاربة، كأنّها تعبت من الطواف فوق البحيرة بحثاً عن رزقها اليوميّ، فحطّت هناك تستريح قليلاً، وتناقش في ما بينها شؤون النوارس، يهزهزها رفيف الماء، وبين وقت وآخر ينهض من بين المجموعة الطافية طائر وحيد – كأنّ هاجساً خفيّاً أوحى إليه بأن يبرح مكانه، في تلك اللحظة، لا أدري لماذا – ويحلّق على علوّ منخفض، لمسافة قصيرة، فوق رؤوس أصحابه، ليحطّ بعد ذلك في مكان آخر من حلقة الطيور، ويعاود جلسته الساكنة، يصغي إلى ما يقولون. والمباني الصغيرة الممتدّة على الجانب الآخر من الماء تلوح شديدة البياض بفعل الشمس، وأبي، بين وقت وآخر، يكلّم البحيرة بصوته الخفيض النبرة، ولا افهم مغزى الكثير ممّا يقول (أمّا الآن – بعد السنين التي مرّت على غيابه – فإنّني افهم كلّ ما كان يقوله. أكان يحذّرني من مكر الآخرين، وأنا الذي كنت – تحت تأثير مزاعم امّي – ينتابني بعض الشكّ أحياناً في سلامة عقله. ولكنّ الزمن يمحو الالتباس، ويعرّي الحقائق، فأنا، في الوقت الحاضر، رجل متزوّج، أوشك أن أفارق بيتي في مهمّة عمل، ينتابني الخوف على زوجتي أن تبقى وحدها، لذلك فإنّ كلماته تنهض فجأة من رقادها في الذاكرة، لترنّ بوضوح شديد في راسي، كأنّنا مازلنا نجلس في



الشمس على صخور البحيرة. وحين تقترح زوجتي أن تبقى وحدها في البيت، بعد رحيلي، يرعاها عمّي، الذي دهم الشيب شعر راسه، وبانت بعض الغضون في لحم وجهه ورقبته، ومع ذلك لم يفقد وسامته، ولا خفّ ولعه المجنون بالخمر والنساء، والذي ظلّ يتردّد على بيتنا المنفصل – برغم مقتي الصريح له – برفقة أمّي (نعم، تزوّجته بعد أربعة أشهر من رحيل أبي!) أقف بحزم في وجه زوجتي، واقتراحها الأهوج. «لا، لن تتكرّر التجربة!» وأطلب منها أن تأخذ الصغير، وتذهب لتقيم عند أهلها، حتى أعود. وأتوسّل إليها ألاّ تسمح لرجل – أيّ رجل – أن ينفرد بها في أيّ مكان أو زمان، وعلى الأخصّ إذا كان هذا الرّجل هو الفاسق عمّي. فتبتسم، وترنو إليّ بوجه يشعّ حبّاً – أفرحتها غيرتي عليها – وتقول في دلال: «إنّك إنسان متخلّف، إذ كيف يخطر ببالك أن تخاف عليّ من عمّك الذي هو في مقام المرحوم والدك نفسه، في كلّ الحسابات. ولو كان المسكين تزوّج وهو مايزال شاباً، ولم يكرّس أحلى سنوات عمره من أجل رعايتكم، حين كان أبوك في الخدمة، ثم بعد عودته من الأسر معوقاً، لكان أنجب ولداً في مثل عمرك الآن!؟» وتضيف وهي تلمس خدّي بطرف أصبعها «وربّما يشبهك أيضاً!». وتزعجني عبارتها هذه، فأقول لها: «أنت امرأة مهما تكن جميلة وعذبة، فهي عمياء لا ترى شيئاً»، وأضع حدّاً لهذا الكلام بتقبيلها قبلة وداع طويلة، أحمّلها شوقي لكلّ الأشياء العزيزة التي أتركها ورائي، وأقبّل طفلي الصغير، وأغادر بيتي قبل حلول الظلام). أسمع أبي يتكلّم الآن وجهه شطر البحيرة: «كان عليّ أن أذهب، وكان عليها أن تبقى في البيت وحدها، مع أمّنا العجوز رحمها الله». (أبي يتحدّث عن أمّه



العجوز، أمّا أمّي أنا فماتزال فتيّة الوجه غضّة الجسد، تتحايل على بطش السنين بوسائل التجميل الحديثة، بحذق امرأة صبور، متمرّسة). «وكانت أمك، في السنوات الأولى من زواجنا، نقيّة وبريئة مثل سمكة». يقول أبي وهو يرنو إلى خيط الشصّ الساكن بين أصابعه منذ بعض الوقت. «لا أدري أين ولّى السمك هذا اليوم! اللّه يا ولدي كم يتغيّر الإنسان، حين يستثار الحيوان في داخله، وتستفيق الغرائز! كم يتغيّر! كان هو شاباً طيّباً، خجولاً، مثل بنت يافعة لم تعرف رجلاً بعد. وعندما يكمل دراسته، التي أنفقت عليها من حُرّ مالي، ويشتغل ويكسب مالاً، أقترح عليه أن يتزوّج، غير أنّه لا يبدو متحمّساً للزواج فأتركه يعيش عزباً معنا في البيت، فأنا الذي سهرت على تربيته، بعد أن ارتحل أبونا، وأمّي لا تريده يسكن بعيداً عنها، فهو صغيرها المدلّل. وأنا بحكم عملي كثير الأسفار، وعندما جاءت الحرب بعد ذلك غبت عن البيت زمناً طويلاً». يختلج خيط الشصّ بين أصابعه فيسكت عن الكلام، ويرقب الخيط متحفّزاً، إلاّ أنّ الخيط يسكن مرّة أخرى، ويظلّ صامتاً يرنو إلى الماء في شرود. أنظر إلى وجهه مندهشاً، فهذه أوّل مرّة أسمعه فيها يكشف لي عن أسرار حياته، وهو واعٍ تماماً لما يقول، لا يهذي، ولا يشطّ في الخيال، كما يفعل غالباً. ويفيق من شروده، يرفع عينيه عن الماء، ويديرهما صوبي. «كانت أمّنا العجوز، رحمها اللّه، تصلّي كثيراً، بين جدران غرفتها، ولا ترى غير وجه ربّها»، يكفهرّ وجهه بغتة. «لكن لماذا أقول لك كلّ هذا الكلام!؟ لماذا أقول لك هذا الكلام!؟» ويصمت غاضباً، ويجرّ الخيط من الماء، فأناوله قطعة من الطعم، يلفّها بعناية حول حديدة الشصّ، ثم يرفع ذراعه، ويرمي بالحديدة



بقوّة صوب البحيرة، فينطلق الخيط يتلوّى وراءها لينزل بعد ذلك في الماء. (برغم إصابة أبي في عموده الفقري، تبقى ذراعاه قويّتين إلى حدٍّ ما، على الخصوص حين يكون جالساً). وبعد صمت طويل يعاوده الهدوء، فيتابع الكلام بصوت أقرب إلى الهمس، وجهه شطر الماء، كأنّه يبوح بخواطره وأفكاره للبحيرة، كاتمة الأسرار «وتتداعى أمّي دفعة واحدة، وتكثر، في هذه الأثناء، من الصلاة. نائمة في فراشها، تحرّك عينيها فقط دلالة الركوع والسجود، وتدعو اللّه أن يعيدني إليها، مثلما أعاد يوسف إلى يعقوب، سليماً، خالياً من الجراح. وكنت أنا مثلها، أظنّ الخطر الذي يترصّد مصائرنا إنّما يكمن لنا هناك، تحت وابل نيران الأعداء، لا بين جدران البيت، وجدران الوطن. وأخذت أمّنا بعد ذلك تتصاغر عقلاً وجسماً، يوماً بعد يوم، بفعل المرض، وبفعل الزمن - الذي هو مرض آخر يا ولدي - لتعود سريعاً إلى هشاشة الطفولة، وأمّك تخدمها.. نعم، فبرغم كلّ شيء يتوجّب عليّ الاعتراف لأمك بهذا الصنيع..» يتوقّف أبي عن الكلام، إذ إنّ سرباً من فراخ الأسماك يقبل نحو خيط الشصّ، ويروح يحوم حوله، تحت سطح الماء الشفيف، ويرتطم أفراد السرب بجوانب الخيط النازل في البحيرة، فتنشأ عن ذلك اهتزازات خادعة، تشابه إلى حدٍّ ما ما تحدثه سمكة كبيرة تناور الطعم في الأعماق. يرقب أبي حركة الأفراخ الصغيرة في ضيق، حتى تملّ من دورانها حول الخيط، وتمضي مبتعدة. «.. قلت لهم ماذا أفعل!؟» يعاود أبي حديثه الهامس مع البحيرة، وأنا أصغي إليه مشدوهاً، كلماته تحفر في روحي (وسوف تظلّ ترافقني - هذه الكلمات الملتاعة - حتى ما بعد نهاية المأساة وذيولها) «ولكنّهم لم يسمعوا نداء حيرتي، إذ إنّني



بلا صوت صرخت، وهم ينتظرون الفرصة للخروج من القبر المفتوح. ومتى تأتي هذه الفرصة، بالله عليكم!؟ فيقولون لي اصبر.. اصبر! ولكن متى استمع الملهوف لنصيحة ناصح!؟ فالانتظار يقتلني. أفكّر في ابني، وفيها هي أيضاً، وحدها في البيت مع شقيقي، والعجوز المريضة أمّنا، حبيسة غرفتها، لا تشاهد غير وجه العليّ القدير عزّ وجلّ. ولكن ماذا بوسعك ان تفعل، وأنت محاصر هناك، على مسافة أيّام، غير ان تتمزّق وحدك.. تتمزّق، تفتك بك الهواجس والظنون، والليل، والنيران تضيء خط التقاء الأرض بالسماء. وفي الفضاء الخالي من الغيوم، فوق رؤوسنا، تتراكض النجوم، نجمة تتبع نجمة، ونحن نقبع بين جدران نفق حفره في الأرض اناس مرّوا من هنا قبلنا، نجهل ما حلّ بهم، ولا ندري أَمِنْ إخوتنا كانوا أم من الطرف الآخر. المهمّ هو أنّهم تركوا لنا وراءهم حفرة نلوذ بها، والأرض تَتَخَضْخَضُ ولا احد يتكلّم، عيوننا اللامعة في العتمة هي وحدها تضجّ بالأسئلة الحائرة، التي لا جواب لها. ويخفت الدويّ قليلاً، لا ينقطع إنّما يهدأ قليلاً..» يختلج خيط الشمس في يده، إلاّ انّه لا يكترث له هذه المرّة، غارقاً في حكايته، وأنا أصغي، مشدوداً إلى كلماته الغريبة، اكتشف فيها مجاهل جديدة في حياته. «.. فأقول لوجوه أصحابي.. حان الوقت يا جماعة وانسلّ خارجاً من الحفرة، فلا يتبعني أحد، أصواتهم المحذِّرة وحدها تتبعني، أيديهم تتعلّق بثيابي، غير أنّني انتزع نفسي من أصواتهم، ومن أيديهم، وأطلع إلى سطح الأرض، يجتذبني وجه ابني. ولا انهض واقفاً من فوري، بل أخرج زاحفاً، أحاول استكشاف العتمة المحيطة، والنيران خابية، والهدير البعيد واطئ النبرات. وحين أطمئنّ إلى فراغ الأرض



الشاسعة من حولي، أنهض واقفاً بطول قامتي - المرّة الأخيرة في حياتي أنهض فيها واقفاً هكذا، بطول قامتي - وأمشي بعد ذلك في خطّ مائل، أظنّه يوصلني في النهاية إلى بيتي وأحبّتي. ولا أمشي غير خطوات قلائل.. محض خطوات، ثم تباغتني اللسعة الكاوية، فأتداعى على الشوك، وتنطفئ النجوم في عينيّ».

- يعني أنت من أجلي أنا خاطرت بحياتك!؟

- ها.. ماذا قلت!؟

- أقول يعني أنت من أجلي أنا عرّضت نفسك للإصابة في عمودك الفقري!؟

ترقّ عيناه.

- يا ولدي، إنّك أنت عمودي الفقري!

تظلّ نظراته، لحظة طويلة، تتأمّلني بمزيج من الزهو والحب. ثم يعود بوجهه صوب البحيرة، إلى أسماكه اللابدة في الأعماق، وإلى الخيط النازل من يده في الماء. فأرنو إلى وجهه بإشفاق، حطام رجل تشلّه الإصابة وتمزّق روحه الأوجاع. وتمتدّ بيننا، بعد ذلك، فترة من الصمت طويلة، أسمع خلالها صرخات النوارس المتقطّعة، الحادّة، المتداخلة، تصخب بلا توقّف فوق رأسينا، على امتداد الشاطئ، غير بعيد عن الضفاف. وتحت ضجيج الطيور، أسمع همس الماء، مويجاته الصغيرة تلامس صخور الشاطئ برفق وليونة.

- أسمع لغطاً خفيضاً، ودبيب خطى مقبلة.

يباغتني صوته متجهّماً، مستثاراً.



- لا، لا تلتفت!

يرفع رأسه عن خيط الشصّ.

- أظنّهما عمك وأمك جاءا يتسلّيان بالفرجة علينا!

تمرّ لحظات يعلو خلالها وقع الخطى المقتربة. وأمنع نفسي من الالتفات لمعرفة القادمين، امتثالاً لرغبته. ثم أسمع صوتاً عابثاً وراء ظهرينا.

- صباح الخير! كيف الصيد هذا اليوم!؟

ولا تروق لي النبرة الساخرة التي يتكلّم بها عمّي، في حين يظلّ ابي على جلسته الساكنة، غير انّ وجهه يغدو قاتماً. وأدير راسي اخيراً إلى الواقفين وراءنا. وتبتسم أمّي في وجهي بمودّة، فأقابل محاولتها المهادنة بوجه جامد الملامح، يجعل ابتسامتها تذوي على وجهها. اراها ترنو إلى الماء حزينة. عندئذ يداخلني الاشفاق عليها، فهي أمّي على اية حال، غير انّني لا أستطيع أن احمل نفسي على الابتسام لها.. لا أستطيع. وانظر إلى عمّي يقف منتصباً بقامته الطويلة وراء ظهر ابي، ظلّه الأسود يسقط على الجسد الهزيل المعوق، وأمّي تقف بجواره، ظلّها ينتشر فوق جسدي الصغير. وبالنبرة الساخرة نفسها يتساءل عمّي، نظارته السوداء تخفي بريق عينيه الماكرتين.

- كم سمكة اصطدتما وأطلقتما هذا اليوم!؟

يتململ أبي.

- لا تقفا هكذا وراء ظهري، فظلّكما يرهقني!.



عندئذ يفترقان، هي تأتي لتجلس بجواري (عمي يفرش لها منديله الأبيض النظيف على صخرة، فتجلس ووجهها إلى البحيرة) وتضع ذراعها حول كتفي بمحبة وتشدني إليها، كأنها تكتشف لها ابناً ما كانت تعرف عنه شيئاً من قبل، أو كأنها تعتذر عن انشغالها عني بالاهتمام بتلوين وجهها وشفتيها، والعناية بجسدها، تخاف عليه من السمنة والترهل. اشعر بذراعها العارية ثقيلة تكاد تخنقني، لحمها الدافئ يلتصق بعنقي، فأنكمش على نفسي، أحاول أن أتبيّن حقيقة مشاعري نحوها - أأكره أمّي حقاً، أم هو محض استياء طارئ!؟، ويقتعد عمّي صخرة أخرى بجوار أبي، وجهه يبتسم. ويلتفت نحوي فتتكسّر أشعّة الشمس على زجاج نظّارته، فلا أستطيع أن أتبيّن أكان يرنو إلى وجهي بنظرة ودّ، أم نظرة جفاء. (في الحقيقة أنا لا أظنّه يكرهني، فهو على الدوام يحاول أن يتقرّب منّي، برغم نفوري منه).

وتتنهّد أمّي بارتياح، مفتونة بجمال المشهد ينبسط أمامها بسخاء.

- اللّه كم هو بديع هذا النهار!

تمدّ بصرها المستكشف صوب الشاطئ البعيد، على الجانب الآخر من البحيرة.

- وما تلك الأبنية البيض هناك؟

تتوجّه بسؤالها إلينا جميعاً، في محاولة مخلصة منها لبدء حديث حميم، بين أفراد عائلة واحدة، جاءت إلى البحيرة للترفيه عن النفس، إلاّ أنّ أبي يظلّ متمترساً وراء صمته الغاضب، لا يساعدها



على بناء أيّة جسور للاتّصال، يراها واهية ومخادعة، من اجل الحفاظ على المظاهر. واحسّ أنا بنزيز العرق في موضع التقاء ادم ذراعها برقبتي، فأتململ متضايقاً، غير أنّها لا تتحرك. ويوجّه عمّي عدسات نظارته نحو الشاطئ الآخر.

– اظنّها بيوتاً اخرى لمصلحة السياحة.

– وكيف يذهبون إليها؟

تتساءل أمّي. عندئذ ينفجر أبي.

– إذا أردتما مواصلة الكلام بصوت مرتفع.. هكذا.. فاذهبا بعيداً، بعيداً، فالأسماك تفزع من الضجيج!

الحَظ يديه ترتعشان. فيضع عمّي إصبعه على شفتيه، وجهه إليها.

– اششششش! لا ترفعي صوتك! الأسماك...!

إلاّ أنّ أمّي لا تبتسم، وجهها ينغلق، وتلوح عليه علائم المهانة والانكسار. وتنزل ذراعها عن كتفي، فأمسح براحتي لحم عنقي المبلّل بعرقي الممزوج بعرق أمّي. وتجلس هي بعد ذلك صامتة، مخذولة. ثمّ في حركة متوافقة ينهضان معاً من على الصخور (لعلّها اشارت إليه بعينيها، أو اشار هو إليها برأسه). وتناوله منديله فينفضه، وينفض ظهر بنطلونه، ويغادران المكان بلا كلمة. يرقبهما أبي يمشيان معاً، بخطوات كسلى، على امتداد الشاطئ (ولكن لماذا لا يثور أبي!؟ لماذا يسكت ويعاني!؟) وهما يتحدّثان في هذه الأثناء عن تصرّفاته الغريبة، ربّما، وعمّي يؤكّد لها أنّ أخاه مجنون ولا رجاء فيه! من يدري أيّ كلام يقوله لها عن أبي، وهما يبتعدان،



والهواء يعبث بثوبها الحريريّ، يلصق قماشه بظهرها، ويدفع به بين ساقيها، كاشفاً عن ملامح جسدها (وأودّ أن أصرخ وراءها حانقاً لماذا تستعرضين نفسك هكذا أمام العيون!؟) وهو يمشي بجوارها بقامته الفتيّة، الطويلة (معافى تماماً، فهو لم يحارب ولم يصب بجرح يجعله عاجزاً؛ بقي في المؤخَّرة، يحمي ظهور المدافعين عن الوطن) ينظر أمامه، يضرب بقدمه الحصى والأحجار الصغيرة، تصادفه على امتداد الطريق، بلامبالاة إنسان لا يزعجه أيّ شيء على وجه الأرض. واسمع زفير أبي، أراه يحدّق إلى مياه البحيرة، ثم يجرّ الخيط من الماء، يلفّه حول العصا الصغيرة، عيناه المطعونتان تحدِّقان إلى الفراغ المشمس أمامه في قنوط. بعد ذلك أراه ينهض واقفاً. أنظر إليه مندهشاً، إذ لم يحن بعد موعد عودتنا إلى البيت.

– هل نرجع الآن!؟

إلاّ أنّه لا يجيب. أناوله العصا، وأحمل أنا عدّة الصيد، وبرّاد الشاي، وكيس الطعام الفارغ – الذي تصرّ أمّي على أن نعود به إليها – وأقف متهيِّئاً للعودة المبكرة. غير أنّ أبي لا يستدير ليعود بنا إلى البيت، كما كنت أتوقع، بل يظلّ جامداً في مكانه، واجم الملامح، نظراته الشاردة تتأمّل وجه البحيرة الساكن تقريباً. بعد ذلك أراه يترك عصاه تسقط من يده فوق بياض الصخور. ألتقط العصا وأعيدها إليه، فلا يأخذها منّي. وفي اللّحظة التالية أرى جسده يرتفع قليلاً ثم يهوي في الماء كما يهوي حجر كبير، ثقيلاً، وفي هبوط مستقيم. يرجّني صوت انفجار البحيرة، ومشهد شرائح الماء والرذاذ يتطاير في كلّ اتّجاه، وقبّعة أبي تفارق رأسه، لتتأرجح

على سطح الماء، على مسافة قريبة من موضع سقوط الجسد.

أحدِّق، لجزء من الثانية، إلى اضطراب وجه البحيرة مذهولاً. لا أفهم معنىً لما حدث. ثم أُلقي ما بيدي، وأستدير لأصرخ، بأعلى صوت، بالهيكلين الغافلين، المبتعدين في الشمس، ذراعاي تلوِّحان لهما بحركات مخبولة.

– الحقونا! أبي سقط في الماء! أبي يغرق!

وعندما أنجح في إثارة انتباههما، وأراهما يعودان، أمي تسبق عمّي – تعدو تقريباً – ألتفت صوب البحيرة، أبحث عن جسد أبي. خرج برأسه يشهق الهواء، لحظة صغيرة، ليغوص مرّة أخرى، هيكله الأدكَن يتقلّب تحت السطح المترجرج. وبجرأة صبيّ – يائس ومرعوب – يظنّ أنّ بوسعه، بقوّة جسده الضئيل، وذراعيه الناحلتين، إنتشالك من لجج المياه المحدقة بك من كلّ جانب، أرمي بنفسي وراءك في عمق الماء!



-٣-

البيت الذي استأجرناه على ضفاف البحيرة، والذي يبعد عن الشاطئ نحو مائتي متر، هو واحد من عشرات الدور المتشابهة، بنتها مصلحة السياحة في هذا المكان. وفي الصفوف الممتدّة على شاطئ البحيرة صنفان من هذه الدور، المشيّدة بالآجرّ الأصفر الباهت، بواجهات خالية من الزخرف؛ صنف بغرفتين للنوم للعوائل الصغيرة من السائحين، وصنف بثلاث غرف. ويصرّ عمّي على أن نستأجر داراً كبيرة، برغم الزيادة في كلفة الإيجار، يتوجّب علينا دفعها (قال إنّه سوف يدفعها بنفسه) لأنّه – كما يزعم – لا يروق له أن ينام في غرفة يشاركه فيها إنسان آخر (وهذا الإنسان الآخر هو أنا بالطبع، برغم ادّعائه أنّه يحبّني كثيراً!). ونتيجة لاصراره على أن تكون له غرفة ينام فيها وحده بلا شريك، أنفرد أنا أيضاً بغرفة نوم لي وحدي. وهكذا نقتسم غرف البيت المؤجّر على البحيرة، كما نفعل في بيتنا الدائم في بغداد، أي أنّ أبي وأمّي يظلاّن ينامان معاً في غرفة واحدة (تترك أمّي بابها مشرّعاً طوال الليل، فهي – كما تقول – تشعر بالانقباض داخل الغرف الموصدة، تحسّ كأنّ الأرض



والسقف والجدران كلّها تغادر أماكنها، وتتحرك صوبها من اجل ان تطبق على أنفاسها، وهي نائمة بجوار ابي، وابي الوديع يوافقها على انّ الأبواب المغلقة تذكّر الإنسان بزنازين السجون، واقفاص الأسر؛ ولكلّ واحد أسبابه، غير انّ النتيجة - وهي بقاء باب غرفتهما مشرعاً طوال الليل - ليست في مصلحة ابي. (انا عرفت هذا في ما بعد طبعاً). إذن فعمّي ينام في غرفة وحده، يغلق بابها عليه اثناء اللّيل، لأنّ غرفة النّوم، كما يقول، ليست شارعاً عاماً يتجوّل فيه كلّ من هبّ ودبّ من النّاس، إنّما هي المكان الوحيد، الحميم جدّاً، الذي يمكن للواحد منّا ان يختلي فيه بنفسه، ويتعرّى متى شاء - جسداً وروحاً - بعيداً عن مضايقات العيون المتطفلة. لذلك فإنّ الإنسان لا ينبغي إطلاقاً ان يفتح باب غرفة نومه - يقول عمّي - إلاّ لمن تشاركه، او يشاركه النوم في السرير، وكلام من هذا القبيل يردّده امامنا، جالساً في المساء، في صالة البيت احياناً، يحتسي الويسكي او الجِن، ويلتهم حبّات الفول المسلوق، و«اللبلبي» تعدّه له امّي بلا تذمّر، حين تكون عنده زجاجة شراب جاء بها معه من مشرب الفندق، ملفوفة بورق لمّاع، في الليلة السابقة، بعد جلسة سكر طويلة، قضاها هناك، يتبادل النكات الجنسيّة مع روّاد المشرب من النزلاء في الفندق، او المتردّدين عليه من الرجال، من ساكني الدور السياحيّة على البحيرة (وسوف يسمعني بعضاً منها - هذه النكات الفاضحة - بعد إحدى عشرة سنة من هذا التاريخ، حين اغدو انا زوجاً وابأً، وابدأ بمشاركته جلسات شرابه خارج البيت، قبل غرقه هو الآخر في مياه البحيرة، وموته الذي تتّهمني امي بتدبيره، تشاركها في هذا الظنّ زوجتي، التي لا تتجرّأ بالطبع على



قول ذلك صراحة. إنّما بنظرات الشكّ في عينيها، كلّما جاء ذكره في ما بعد لأيّ سبب). ويتكلّم عمّي منتشياً، في جلسات سكره البيتيّة، ويرنو، من خلال زجاج نظّارته القاتم إلى وجه أبي، الذي لا يبرح الحزن عينيه، والذي يلوح عليه الوجوم، والاستغراق في التفكير، نظراته على وجه أمّي، تهرب منها بعينيها، وتتشاغل بالنظر إلى أظافرها المصبوغة بلون الدم، أو بتعديل الخصلات النافرة من شعرها الأسود الطويل، أو تتكلّف الابتسام في وجهي، لعلّي أستجيب لها فأبتسم، ولكنّني لا ابتسم، لأنّني لا اريد أن أغدو متواطئاً، يساعدها على الإفلات من الشعور بالحرج، الذي يسبّبه لها عمّي بكلماته الطائشة في حضور ابي.

نعود إلى تصميم البيت، ومواقعنا فيه، نحن الأربعة، أثناء الليل بشكل خاص. بعد المدخل تواجهنا على الفور صالة مستطيلة، في حجم غرفة ضيوف واسعة، لها نافذتان، كلّ نافذة على جانب من المدخل، تطلاّن على البحيرة. يتفرّع من الصالة – في منتصف الجانب القصيّ – ممرّ عريض بعض الشيء، تقع غرف النّوم الثلاث على جانبيه. في بداية الجانب الأيمن من الممرّ تقع غرفة نوم أبي وامّي، يأتي بعد ذلك الحمّام، فمطبخ يسع مائدة طعام صغيرة. في حين تقع الغرفة التي خصّصوها لي انا على الجانب الأيسر، مقابل غرفة نوم والدي. (وهذه رغبة امي، تريدني قريباً منها خشية أن احتاج شيئاً خلال الليل، كما تقول). وهكذا تصبح غرفة نوم عمّي – الذي يقول إنّه يحبّ العزلة والهدوء – في نهاية الممر، بعد غرفتي، وفي مواجهة الحمّام. لذلك فإنّ بوسعي، حين أفزّ من النوم في ساعات اللّيل، لأيّ سبب، أن ألمح أحياناً – في الضوء الخفيف،



المتسرّب من مصباح صغير، يُترك مضاءً في بداية الصالة فتطلّ أمّي، برداء النّوم، تخطف مسرعة، في خطى لا يسمع لها وقع كأنّها تمشي حافية - في طريقها إلى الحمّام. ويحيّرني سلوكها الغريب، حين تعود، بعد وقت طويل، إذ ما إن تدخل غرفتها حتّى تنزل بقامتها إلى الأرض، وتروح بعد ذلك تمشي على اربع، مثل بهيمة، ثم تتسلّق السرير بحذر، لتندسّ في الفراش بجوار ابي المخدّر، الذي لا يحسّ بشيء على أيّة حال. واسمع الصرير الخفيض، ثم يهدأ كلّ شيء في أرجاء البيت. ولا ألمح أبي يذهب إلى الحمّام، في ساعات اللّيل، فهو لا يغادر فراشه في العادة - ينام مثل لوح من الخشب - بعد أن تعطيه أمّي قرصاً، او قرصين، من دواء وصفه له طبيب امراض نفسيّة، ولا ينهض من سريره حتّى فجر اليوم التالي، حين يأتي ليوقظني من اجل ان أخرج معه إلى الصيد. إلاّ أنّني أستيقظ من نومي، في إحدى الليالي، على ضجيج سعاله وأراه واقفاً في الممرّ، امام باب غرفتي. كان يقف متردّداً، يسعل بشدّة، صدره يوشك ان يتفطّر. انتفض جالساً في سريري، اترقّب دخوله عليّ. إلاّ انّه لا يدخل غرفتي، بل يظلّ واقفاً في مكانه يسعل ويتخضخض، نحو دقيقتين من الزمن، كأنّه يتعمّد إثارة هذه الجلبة من أجل أن يجعل احداً ينتبه لوجوده القريب. بعدها اراه يتحرّك، بظهره المنحني، وخطواته البطيئة، إلى عمق الممرّ، معتمداً على عصاه، يضرب بها الأرض بقوّة (او لعلّي اسمع هذه الضربات عالية الرنين، بسبب الصمت الكثيف الذي يطبق على البيت، في هدأة اللّيل). في هذه الأثناء يتناهى إلى سمعي صرير باب يفتح في استعجال، أظنّه، اوّل وهلة، باب الحمّام. (لا أدري لماذا لم يخطر

ببالي ان يكون باباً آخر). ثم افاجأ بقامة امّي تمرّ عائدة إلى غرفتها في خطًى مضطربة عجلى، كأنّها تهرب من شيء. بعد ذلك بلحظات أسمع وقع خطى ابي، وضربات عصاه على أرضيّة الممرّ (تبدو لي اخفت رنيناً، هذه المرّة، كأنّ رجلاً جاوز عمره المائة عام يجرّر خطاه متقدّماً إلى الأمام، بعناء شديد). وحين يغدو أبي بين باب غرفته وباب غرفتي، يستدير بجسده نحو العتمة، تغلّفني منطوياً على نفسي تحت الغطاء، ويتوقف رافعاً رأسه، يحدّق واجماً إلى فراشي الساكن، فأسارع إلى إطباق جفوني، حتى لا يلحظ لمعان عيني في الظلام، ويدرك انّني لست نائماً، ارقب كل حركة يقوم بها. وأشعر به – دون أن أراه – يقف هكذا في مكانه في الممرّ فترة طويلة. ثمّ أسمع صوت خطاه تنتقل من موضع إلى موضع، وكذلك ضربات عصاه على البساط، يتردّد خفيضاً بين جدران غرفتي. وأشعر، بعد ذلك – وأنا ما ازال مغمض العينين – بثقل حضوره بجانب السرير. وعندما ينحني بقامته، ويدني وجهه من وجهي، مستنداً بإحدى يديه إلى حافّة الفراش، أحسّ بالسرير يهبط قليلاً تحتي، واسمع انفاسه اللاهثة فوق وجهي تماماً، واشمّ فيها رائحة التبغ المحروق، وتسوّس الأسنان، وكذلك رائحة العجز واليأس، والكهولة المبكرة، (فلهذه الحالات المؤسية روائح ايضاً). وامنع جسدي من الإتيان بأيّة حركة، مترقّباً ما ينوي القيام به في اللحظة التالية. (ترى ما الذي دفع به إلى المجيء إلى غرفتي في هذه الساعة من الليل!؟ فهذه فعلة لم يقدم عليها من قبل. ثم ماذا كان يجري في غرفة عمي!؟) واحسّ بوجهه يتوهّج ساخناً، يهبط به اكثر فأكثرفوق فوق وجهي المستثار، والساكن في الوقت نفسه. وتمسّ شفتاه النديّتان،



المستعرتان، لحم خدّي، مسّاً خفيفاً جداً - يخاف ان يوقظني من نوم يتوهّمه - وصوته يهمس في حذر ولوعة. «انت الذي كسر ظهري، يا ولدي!» ولصغر سنّي لا أفهم ما الذي يعنيه ابي ببكائه اليائسة هذه، لذلك تحيِّرني صرخته المهموسة في الظلام، فوق راسي، وتلسعني - مثل شرارة من نار - دمعة واحدة تهطل على وجنتي. أحسّ به يرفع قامته بعد ذلك، ويبتعد عنّي بهيكله المتأرجح فأفتح عيني أخيراً لأراه يغادر الغرفة يجرِّر قدميه، ظهره المعطوب اكثر انحناءً من قبل. ويدخل عتمة غرفة نومه، ليرقد بجوار امّي. واسمع كلمات متشنِّجة، متقطِّعة، ثم تموت الأصوات، ليقضي ابي، بعد ذلك، ما بقي من ساعات الليل أرقاً، ربّما (إنّني اتخيّل حالته النفسيّة) وعيناه تحدِّقان إلى سقف الغرفة، محاذراً أن يلامس جسده جسدها. (هذه الخواطر الموجعة تأتيني في ما بعد، وانا مراهق في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، فمنذ ابتدأت أكتشف بعض أمور الدنيا، واختلاطات العلاقات الإنسانية، وانا أسائل نفسي - والمشهد المحيّر لما جرى في تلك الليلة، التي لا تبارح الذاكرة، يلوح لي بكلّ دقائقه الغريبة - ترى لماذا أثار ابي كلّ تلك الجلبة بسعاله المتواصل في هداة اللّيل، واقفاً على بعد خطوات من الغرفة التي اختليا فيها، لماذا!؟).

حقاً، لماذا فعلت ذلك يا أبي!؟

ولكن لا امل لي في جواب منك الآن، بعد أن رحلت وتركتني في حيرتي!



-٤-

أتأمّل وجهه الشديد الشحوب، البادي الإرهاق، كأنّه يعاني مرضاً طويلاً، جالساً على صخور الشاطئ، يرمي الشصّ في الماء وينتظر، عيناه تنظران إلى وجه البحيرة في شرود ولا تريان شيئاً (على الأرجح تريان ما يدور في داخل رأسه من مشاهد لا تمّحي) وبين وقت وآخر تنتابه رعشة تخضّ جسده الناحل. أمدّ يدي أجسّ بها يده، أجدها باردة. يرنو إلى وجهي بامتنان وحبّ.

- لا يا ولدي، أنا لست مريضاً. إنّما هواء البحيرة يجعلني...

هواء الصباح الرخيّ، المعبّأ بروائح الأرض المرويّة، والعشب والأشجار، ومطابخ البيوت القريبة، يحمل إلينا برودة ماء البحيرة، لم تدفئه أشعّة الشمس بعد.

- الأحسن أن نعود إلى البيت الآن.

- قلت لك لست مريضاً.

تنتابه رعشة أخرى فيضحك محرجاً.

كان عليه أن يظلّ نائماً في فراشه أيّاماً أخرى، بعد تلك الحادثة،



مازلت لا أفهم دوافعها. غير انّه لم يبقَ في البيت غير يومين فقط، مستجيباً لإلحاح امّي (تتصرّف أحياناً كأنّها تحبّه، وتخاف عليه، وهذا ما لا أفهمه!). وفجر هذا اليوم انتزعني من الفراش، وجرّني معه إلى الشاطئ، وهو يسعل ويلهث. أرنو إلى وجهه، وافكّر قلقاً وحائراً في العمل المجنون، الذي قام به قبل يومين.

– أبي ، قل لي، لماذا حاولت أن تنتحر!؟

يلتفت مندهشاً.

– أنا أنتحر! ولكن من قال لك مثل هذا الكلام الأحمق!؟

– إذن لماذا ألقيت بنفسك في البحيرة قبل أيام!؟

– من أجل أن أطفئ النّار التي اشتعلت في روحي.

– يعني أنت لم تفكّر في..!؟

– لا طبعاً، فأنا لست مجنوناً، ولا يائساً. ولا تصدِّق أبداً ما يقولونه لك عنّي.

حين يراني أرنو إلى وجهه في شيء من عدم التصديق، يلمس خدّي بإصبعه مداعباً.

– كيف أنتحر وأترك ابني، وحيدي، يعيش بلا أب، وهو مايزال في الحادية عشرة!؟

– في الثالثة عشرة يا أبي، الثالثة عشرة!

يضحك.

– نعم، مثلما تقول. أمسك بالخيط.

أمسك له بخيط الشصّ، ريثما يشعل سيجارة يضع طرفها بين



شفتيه، ثم يسترجع الخيط من يدي، ويعود بوجهه إلى البحيرة، ويتركني مع حيرتي، لا أدري ماذا أصدّق، أكلماته الظاهرة البراءة، أم تصرّفاته الغريبة!؟ وعمّي يردّد أمام الجيران الذين حضروا مكان الحادثة، أو سمعوا بها في ما بعد، أنّ أخاه الكبير يعاني حالة اكتئاب نفسيٍّ شديد، منذ عودته من الأسر، ولو لم يسارع بإخراجه من الماء في اللحظة الأخيرة، بعد أن سمع صراخ (الولد) الفَزِع - يقصدني أنا - وإشاراته المجنونة، لقضى أخوه نحبه غرقاً في مياه البحيرة، وأن محاولة أخيه هذه ليست الأولى، إذ هو حاول أن يقتل نفسه مرّات من قبل (لم أشهد، أو أسمع محاولة سابقة من هذا القبيل) إلاّ أنّ اللّه، سبحانه وتعالى (يواصل عمّي ادّعاءاته أمام الجيران) أراد لأخيه أن يعيش. وكان هو حاضراً في كلّ مرّة، أو في مكان قريب، إلاّ أنّه يخشى أن ينجح أخوه، في واحدة في محاولاته اليائسة هذه، لا سمح اللّه. وهو - بصراحة - شديد القلق، ويحاول الاّ يغفل عنه قدر المستطاع، كما أنّ (الولد) لا يفارقه تقريباً؛ ومثل هذا الكلام أسمعه يردّده أيضاً أمام امرأة تقضي الإجازة مع زوجها، في دار مجاورة (امرأة حلوة، طويلة القامة، في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريباً - وهو عمر يقارب عمر أمّي - حين تتكلّم يخيّل إليك أنّها استيقظت من النوم توّاً). شاهدت هذه المرأة، ما جرى، إذ كانت من أوائل الحاضرين على الشاطئ، فهي لم تضع الوقت في إبدال ثيابها، بل خطفت لها عباءة من فوق المشجب، ولبستها فوق ثياب النوم، وجاءت مسرعة، جوانب من رداء نومها الزاهي تلوح من بين ثنايا عباءتها السوداء؛ وتابعت عمليّة إخراج أبي، مبلّلاً ومذهولاً، من داخل البحيرة، وشاهدت عمّي

يسبح بمهارة، بقميصه وبنطلونه (لم يخلع غير نظارته، وفردتي حذائه). ورأته، بعد ذلك، شعره الأسود اللامع يلتصق بجبينه العريض، يحمل أبي على ذراعيه، ويمشي به مسرعاً صوب البيت، والماء يقطر من ثيابهما المنقوعة، ويترك على إسمنت الممرّات الكالح، خطوطاً مضطربة من البلل. وشاهدت أبي، بشعره الأشيب القصير المبلول، يتأرجح على ذراعي عمّي، عيناه فاغرتان، تحدّقان في ثبات مندهش إلى فراغ السماء الصافية فوق رأسه، وأمّي تحوم حولهما مضطربة، من إحدى يديها تتدلّى فردتا حذاء عمّي، وفي يدها الأخرى تلوح نظارته السوداء، تحملها بحرص، وعمّي يمشي حافياً، بجوربيه المبلّلين، قدماه تتركان بصماتهما الواضحة على الأرض اليابسة، وأنا بثيابي المبلولة أيضاً أمشي وراءهم ذاهلاً، ووراءنا عدد من النّاس، رجالاً ونساءً، خرجوا من البيوت القريبة يتعرّفون سرّ تلك الجلبة، أثرتها أنا في البداية، وأثارتها أمّي بعد ذلك بنداءاتها المذعورة. وظلّ هؤلاء النّاس في ما بعد يلغطون عند باب بيتنا، بينهم جارتنا الطويلة، ذات الصوت الناعس. وفي داخل البيت، في غرفة نوم أبي وامّي، يقف عمّي متردّداً، جسد أبي الهزيل بين ذراعيه، الماء يقطر من ثناياه، يتلفّت لا يدري في أيّ مكان يضعه «على البساط! على البساط! ضعه على البساط! أبدّل له ثيابه أوّلاً!» فيضعه عمّي برفق على البساط، كما طلبت منه أمّي، وأبي لا يقول شيئاً، عيناه تحدّقان إلى سقف الحجرة، وأنا أرنو إليه بإشفاق وحيرة. وكانت تلك هي إحدى المرّات القليلة أشاهده فيها حاسر الرأس، فقبّعته القشّ بقيت تطفو على سطح البحيرة، على مقربة من الشاطئ، نسيناها مهملة هناك، مع عصاه، وعُدّة الصيد، والحاجات



الأخرى المتروكة على الصخور، إلاّ انّه لم ينسها، ففي الوقت الذي كانت أمي تقوم فيه بتجريده من ثيابه المنقوعة، أراه ينتفض مضطرباً «قبّعتي! أين قبّعتي!؟» وينطلق عمّي في نوبة من الضحك. وحين ترنو إليه أمّي معاتبة، يغادر الحجرة، وهو مايزال غير قادر على السيطرة على نفسه. وتنظر أمّي إلى وجه أبي في إشفاق حزين. وقبل أن تطلب منّي الذهاب لانتشال قبّعة أبي من الماء، اسارع أنا إلى خلع ثيابي المبلولة، واغادر البيت بلباسي الداخلي، في طريقي إلى البحيرة، الهواء والشمس والظلال تلامس جسدي النديّ. ولا أرى أحداً من الجيران خارج الدار، إذ تفرّقوا وفرغ المكان منهم. والمح – وانا ماأزال بعد على مسافة من الجرف الصخريّ – القبّعة طافية على وجه الماء، تلوح ساكنة تماماً، غير بعيد عن الموضع الذي رمى فيه أبي بنفسه. انزل من فوق الصخور، اعوم قليلاً، التقطها والماء النازل منها يثقب وجه البحيرة. والملم عصاه، وأدوات صيده، وبرّاد الشاي، واعود بها جميعاً إلى البيت. أرى أبي يرقد على الفراش، بعد ان ابدلت له أمّي ثيابه، ووضعته على السرير بمساعدة عمّي، ثم غطّته ببطّانيّة صوفيّة، وجهه وجه ميت، لولا رفيف أجفانه المطبقة، بين وقت وآخر. وهي تجلس، في سكون، يقف عمّي – الذي غيّر ثيابه هو أيضاً، وعاد يغطّي عينيه بنظارته السوداء – في باب الغرفة، مستنداً بكتفه إلى قائم الباب، يرنو إليهما صامتاً، وجهه جامد الملامح. على هذه الصورة (نعم، اتذكّر المشهد جيّداً) أجد الثلاثة – الذين هم كلّ اهلي – عند عودتي من البحيرة، فلا افتح فمي بكلمة واحدة. أضع القبّعة على الكرسيّ الوحيد في الغرفة، وأسند العصا إلى حافّة السرير، وأذهب بأدوات



الصيد وبرّاد الشاي إلى المطبخ، ثم أدخل غرفتي، لأغطّي جسدي بثياب أخرى.

في مساء اليوم نفسه، أسمع - بالمصادفة - عمّي يتحدّث مع المرأة في البيت المجاور، وأنا أقف في باب الدار أرنو ساهماً إلى سطح البحيرة الساكن، تلوّنه شمس الغروب، وأبي مايزال يرقد في سريره منهكاً، أمّي بجواره (أتركها وحدها معه - لعلّ هذه المحنة تقرّب الواحد من الآخر - وهي تمسِّد له قدميه وساقيه، يداها تتحرّكان، تحت الغطاء، صعوداً ونزولاً، عيناه ترنوان إليها بامتنان، ربّما يبدو لي (لست واثقاً تماماً) استعداداً، غير مشروط، للصفح والغفران، ونسيان كلّ ما جرى في الماضي، الذي أجهل أنا الكثير من تفاصيله). في هذه الساعة يخرج عمّي من البيت، متأنّقاً كعادته، في طريقه إلى مشرب الفندق، في هذا الوقت المبكر من المساء، كأنه يريد أن يهرب من رؤيتهما، وهما في حالة من الانسجام العائليّ. وألمح جارتنا تخرج من باب دارها، في اللحظة ذاتها (أكانت تترصّد خروجه!؟).

- مساء الخير أستاذ!

- أهلاً، أهلاً، مساء الخير! أهلاً وسهلاً!

كم يبدو مبتهجاً صوت عمّي! وألمحها تخطو صوبه، غير أنّها لا تقترب منه كثيراً.

- كيف حاله الآن!؟ أقصد أخاك المسكين!

- أحسن.. أحسن كثيراً.. الحمد لله. شكراً لاهتمامك.

عيناه تستكشفان مفاتنها، ترتدي، هذه المرّة، ثوباً أبيض طويلاً، بلا أكمام.



- من حسن حظّه أنك لم تكن بعيداً، وإلاّ..!

- نعم، صحيح. ولكن من يدري ماذا سيحدث في المستقبل!

- يجب أن تراقبا تحرّكاته دائماً.

- طبعاً طبعاً. أكيد، فهذه ليست المرّة الأولى يحاول فيها..!

يخطو صوبها، فتضيق المسافة بين الجسدين.

وأحدس بأنّ عمّي يوشك أن يلتفت برأسه ليرى إن كنت ماأزال واقفاً في مكاني، أسمع الكلام، وأرى ما يجري، لذلك أسارع في الدخول إلى البيت، أنزوي وراء الباب، أتركه موارباً.

- وما الذي يدفعه إلى ..!؟ هل..!؟

متلهّفة لمعرفة الأسرار، هذه المرأة. غير أنّه لا يردّ عليها في الحال، يبدو متردّداً. ثم يأتيني صوته يتكلّم في تحفّظ وغموض.

- في الواقع.. أمور كثيرة. لا أدري ماذا أقول. مثل هذا الكلام، أنت تعرفين، ليس هذا مكانه. في الحقيقة أنا بودّي..

- بوسعنا أن نتكلّم في الداخل.

- داخل أين!؟

- عندي في البيت.

واتخيّله سعيداً، يتلفّت ليطمئنّ إلى فراغ المكان، والشاطئ القريب مقفر تماماً.

- والأستاذ!؟ هل هو موجود في البيت الآن!؟

نبرة صوته تحمل مزيجاً من اللّهفة للانفراد بها، والخوف من النتائج، واسمع ضحكتها العابثة.



– أيّ أستاذ!؟ تقصد زوجي؟ لالا، هو ليس موجوداً الآن. ذهب، يلعب البليارد في الفندق. ولن يعود قبل..

– أنت متأكّدة!؟

– طبعاً، فهو يفعل ذلك كلّ يوم تقريباً.

– ولماذا لا تذهبين أنت معه!؟

– ألعب البليارد!؟

تضحك بمرح، فيضحك بارتياح.

– تفضّل، تفضّل.

ولكن كم هي جريئة،ومتهوّرة، هذه المرأة..!

وتغادر الأصوات المتحاورة مكانها، ولا أعود أسمع شيئاً، إذ يحجبهما عنّي انغلاق الباب، حين يحتويهما بيتها، بين جدرانه الصمّاء بعد ذلك. ولا أدري ماذا قال – أو فعل عمّي – داخل بيت هذه المرأة، غير أنّني أفترض أنّه تحدّث معها، فيما تحدّث – بقدر ما يسمح له به الوقت، وظروف الخلوة بينهما – عن معاناة أبي بسبب حالته النفسية المتردّية، وعن محاولات عديدة سابقة أقدم عليها من أجل إنهاء حياته.

وأبي يقول لي الآن، ونحن نجلس على شاطئ البحيرة، إنّه لم يفكّر – ولن يفكّر إطلاقاً – في قتل نفسه، وإنّ من يفعل ذلك إنسان يائس، أو مجنون. أحدّق طويلاً إلى الجانب القريب من وجهه الساهم، نظراته على الخيط الممتدّ بين أصابعه وعتمة المياه، ينتظر ذلك الإحساس المثير الذي يعرفه الصيّادون، تحدثه في النفس اختلاجة الخيط المباغتة، بين أصابع أضناها الترقّب والانتظار.



من مياه البحيرة، يسيل خارجاً بهدوء فتمتصّه الأرض سريعاً، وعيناك الفاغرتان قطعتا زجاج تطيلان التحديق بثبات، ولا تريان زرقة السماء الصافية، والمفتوحة حتى آخر مدى، فوق راسك، بشرة وجهك غريبة اللون، وفي لحم خدّيك جروح احدثتها الأسماك، وغسل الماء عنها آثار الدِّماء، فبدت مثل ندوب بيض صغيرة، وقبّعة القش - الحبيبة إلى نفسك - تطفو فوق سطح البحيرة، أبعَدَها عن الشاطئ قليلاً اضطراب الماء، أثاره الرِّجال بحركتهم، دامت ساعات طويلة، يبحثون عنك في الأعماق، يغوصون ويخرجون للهواء ثمّ يغوصون، ولا يجدونك، وأنت لست بعيداً عنهم، محشوراً بين عدد من الصخور، قريباً من الشاطئ، حيث يعثرون عليك في النهاية. ولكن أين عصاك!؟ أهتف متسائلاً وسط اللغط والحيرة والانتظار. «أين عصاه!؟ كيف وصل أبي إلى البحيرة بلا عصا يتعكّز عليها!؟» ويرمقني عمّي بنظرة أحسّها مثل ضربة سوط، ثمّ يتجاهلني، ويهرع صوب البيت يجفِّف البلل عن جسده، ويغيِّر ثيابه، بانتظار وصول رجال الشرطة، تاركاً جثّتك في حراسة الرِّجال والنِّساء، المتجمّعين حولها، يهدهدها نشيج امّي، ونساء من الجيران (بينهن المرأة التي ادخلت عمّي إلى بيتها) يحاولن مواساتها بلمسات الأيدي المشفقة، وبالكلمات المهدّئة. (وسوف تظهر في ما بعد - وقبل وصول رجال الشرطة - عصاك السوداء ملقاة على الصخور، في وهدة من الشاطئ، على مسافة قريبة). وأتأمّلك ترقد على الأرض مثل شهيد، فأقسم أمام اللّه والبحيرة بأنّني حين أكبر، وأغدو رجلاً، سوف أجعل الشخص الذي غدر بك، ودبّر لك هذه الميتة المباغتة، يدفع الثمن حياته نفسها، حين أكبر!



-٥-

في اللّيل، حين أضع راسي على الوسادة، في عتمة غرفتي، المشرعة الباب على الممرّ، ويأخذني النوم، يبدأ في الحال شريط طويل من الأحلام، تتلاحق، وتتداخل في فوضى عجيبة، غير انّها فوضى مسلّية. إنّني، في هذه السنّ الصغيرة، ارى احلاماً كلّها الوان، ومشاهد مذهلة، أعيش فيها حياة، وإن كانت قصيرة الأمد، تنتهي في اللحظة التي افيق فيها على وجه أبي يوقظني، وعلى الأشياء الساكنة من حولي، اثاث الغرفة وجدرانها، إلاّ انّها اجمل من حياتي الرتيبة وانا يقظان. التقي، احياناً، أثناء جريان شريط الحلم، اناساً - صبية في الغالب، يكبرون في احلامي، كلّما تقدّم بي العمر - اعرفهم جيّداً، ولي معهم لقاءات سابقة، غير انّني حين أسترجع، في الصباح، ما مرّ في ساعات النوم، اتذكّر الوجوه ولا اتذكّر أنني عرفت، أو التقيت هؤلاء الأشخاص في يوم من الأيّام. وعندما تمرّ بي الأعوام بعد ذلك، وتتغيّر حياتي، تتغيّر احلامي ايضاً. في ايّام المراهقة أرى نسوة فاتنات، في مثل عمر امّي - امّي تظهر بينهنّ احياناً - إلاّ انّهنّ نساء متجبّرات، لا أجرؤ على



الاقتراب منهنّ، والتحدّث إليهنّ. وحين يتقدّم بي العمر أكثر، وأتزوّج، تغدو أحلامي أقلّ متعة - لا أدري لماذا - وتتحوّل كوابيس أصارع للخلاص منها. ولا تغادر أمّي أحلام زمن الرجولة، غير أنّني أراها، هذه المرّة، وعليها - في أغلب الأوقات - ثياب الراقصات في الأفلام المصريّة القديمة، وعمّي يجالسها، ويغنّي لها. ولا أستطيع أن أتعرّف المكان الذي أراهما يلهوان فيه معاً (بهو واسع، وثريّات من الكريستال تتدلّى من سقف مرتفع، وتتوهّج بعشرات المصابيح المشتعلة، ومرايا كبيرة تغطّي الجدران، يتكسّر على صفحاتها الضوء، وتتكرّر داخلها المشاهد إلى ما لا نهاية له، فيبدو المكان بلا حدود). وهي تكركر سعيدة لعبث يديه، تتحسّسان لحمها العاري، ينفتح عنه ثوب الرقص الخليع، وأمامها، في وسط البهو - على سرير متنقّل، من النوع المستخدم في الثكنات- يتمدّد أبي (الذي يقولان لي إنّه انتحر بإلقاء نفسه في البحيرة، قبل سنوات) جسده يختفي تحت بطّانيّة صفراء قديمة، لا يبين منه غير وجهه الساكن، بجراحه البيض التي أحدثتها الأسماك في عتمة المياه، وأنا أهزّه من كتفه لأوقظه من موته، وهو لا يستجيب لمحاولاتي اليائسة، أصرخ وأصرخ وأصرخ، ومن فمي الفاغر لا يندّ صوت، فأجلس عندئذ بجوار جسده الهامد. أنتحب. (هذا المشهد يتكرّر كثيراً في أحلامي، وأنا رجل). يقولون لي لست أنت وحدك الذي يرى أحلاماً غريبة، وتتغيّر أحلامه مع لهاث السنين، فكلّ النّاس يرون مثل هذه الأحلام، وتشيخ أحلامهم معهم. ربّما، أنا لا أدري. لا أحد يكلّمني على أحلامه. غير أنّ أحلامي ازدادت غرابة، وإثارة للأعصاب، في الآونة الأخيرة، إذ بدأت زوجتي تظهر فيها في



مشاهد تشعل النّار في دمي، فهي أيضاً أراها تجالس عمّي، في ساعات سكره، بحضور أمّي التي تشجّعها، ولا تغار منها على زوجها، مع أنّها تغار عليه بجنون، في ساعات اليقظة. ولعلّ السبب في ظهور زوجتي في مسلسل أحلامي الغريبة هو أنّني أخذت الحظ، منذ بعض الوقت، محاولات عمّي الوقحة للتودّد إليها؛ وهي لا تفعل شيئاً لتصدّه عنها - خجلاً، أو رضاً منها، لست واثقاً بعد - وعندما يأتيان لزيارتنا، وترى أمّي، المرّة بعد المرّة، نظراتي المشتعلة، أرمق بها وجه عمّي المندهش، يبتسم لي مهادناً، نظارته السوداء تغطّي عينيه، تخمّن - بحسّ أنثى مجرّبة - السبب الجديد الذي يلهب كراهيتي لعمّي، فتأخذني جانباً، أحد الأيّام، تعاتبني بمرارة. «يا ولدي أنت واهم تماماً في ظنونك السود، فهو يمازحها فقط، مثلما يمازح أب ابنته، وليس هو بالإنسان الحقير يفكّر في معاشرة زوجة ابنه، قصدي أقول بمثابة زوجة ابنه؛ أليس هو الذي ربّاك، بعد انتحار المرحوم!؟ أنا أعرف، منذ زمن بعيد، أنّك تحقد عليه، وشعورك هذا نحوه يقلقني! آه لو تعرف، يا ولدي، كم هو يحبك! أنت تظنّه إنساناً شرّيراً، لا يتردّد في فعل أيّ منكر، ولكنّه ليس هكذا أبداً، صدّقني. اسأل عنه الموظّفين الذين يعملون معه، يحدّثوك عن طيبته، وكيف يساعدهم. صحيح هو يحبّ أن يشرب، ويلهو مع النّساء، أحياناً، وليس هو وحده يفعل هذا من الرّجال، ولكن لا يصل به الأمر إلى.. أعرف أنّك تحقد عليه، منذ حادثة المرحوم التي مرّ عليها الآن زمن طويل، وأنت لا تريد أن تنسى.. تشك في أنّ له يداً! معقول! هذه التصوّرات الغريبة من أين جئت بها!؟ أنت تتذكّر بالطبع التحقيق، جرى وقتها في البيت الذي استأجرناه على



البحيرة، وتقرير الطبّ العدليّ، صدر في ما بعد، حين فرغوا من تشريح الجثّة، يؤكّد سلامة الجسد، من الداخل والخارج، وأنّ المرحوم هو الذي اختار أن ينهي حياته بنفسه، ولا أحد، صدّقني يا ولدي، لا أحد له يد في موته، بأيّ شكل. والآن - كأنّ هذه الظنون الحمقاء وحدها لا تكفي - تفكّر حضرتك أنّه يغازل المحروسة زوجتك.. ويريد أن.. أستغفر اللّه العظيم من كلّ ذنب عظيم! اعقل يا ولدي! اعقل! أنا، كلّ هذه السنين، أحاول أن أقرّبك إليه، وأنت تختلق أسباباً جديدة للعداء..!». وأتركها تتكلّم باندفاع طيلة الوقت، أرنو إليها صامتاً، لا أقاطعها، ولا أناقشها في ما تدّعي، إذ ماذا بوسعك أن تقول لامرأة بلهاء، مدلّهة بحبّ رجل وضيع يجعلها تفعل أيّ شيء من أجله!؟ وعندما تلحظ برودي المميت، تسكت يائسة، وجهها محتقن من الانفعال. هي تظنّني مخلوقاً غريب الأطوار. في الحقيقة أنا إنسان لا ينخدع سريعاً بظواهر الأشياء، كما أنّني كائن تشغله أحلامه. ولست أعني بها أحلام اليقظة عن مشاريع رائعة آمل تحقيقها في يوم من الأيام، كأن أصبح، مثلاً، شخصاً واسع الثراء، يملك النّساء والبساتين والقصور، أو رجلاً مرموقاً، ذا جبروت وسطوة، يتحكّم في رقاب خلق اللّه، وما شابه من أمانٍ دنيويّة، يلهث وراء تحقيقها اللاهثون، لا، إطلاقاً، فأنا أترك المستقبل يتكفّل بنفسه، وهمّي الأوّل الآن - قبل أيّ همّ آخر - هو أن أحقّق العهد الذي قطعته على نفسي، يوم انتشال جثّة أبي من البحيرة، أي أن أجعل الجاني يلقى جزاءه في هذه الدنيا، وفي وقت قريب، لا في الآخرة بعد عمر طويل. إذن فالأحلام التي تشغلني هي التي أراها أثناء النوم، فأكثر النّاس تتبخّر أحلامهم في الصباح، أمّا أنا



فتظلّ - هذه الأحلام المثيرة - تلتصق بذاكرتي لبعض الوقت، مثلما تظلّ الأفلام المؤثّرة التي نراها في السينما، أو على شاشة التلفزيون، أحياناً. وتحدث لي في بعض الأوقات أمور، في الواقع، عشت ما يشابهها في أحلام سابقة. وهذا ما يجعلني أتساءل أهذه الأحداث تقع بالمصادفة المحضة، أم أنّنا نتنبأ، في أحلامنا، بما سوف يقع لنا، أو لغيرنا، في الساعات والأيّام والسنين التالية.

فصباح هذا اليوم، وأنا ما أزال صبيّاً، في البيت السياحيّ، على شاطئ البحيرة. أستمتع بالنوم في فراشي الدافئ، يهدهدني الطنين الخفيض لجهاز التبريد، أشاهد أبي يسبقني إلى الشاطئ، يمشي منتصب القامة، بلا عصا يتعكّز عليها، كأنّه شفي من عاهته بفعل ساحر. وقبل أن أستطيع إدراكه، أراه ينزل إلى البحيرة، ويسير فوق الماء. (ولا يثير ذلك عجبي، إذ لا شيء يثير عجبنا في الأحلام) ووراءه ما يشبه بركة مستطيلة من الزئبق الرجراج، تسطع في الشمس، حين أمعن النظر فيها أجدها سرباً من الأسماك تسبح قريباً من سطح الماء. (لعلّها تلك السمكات التي اصطادها، ثمّ أطلقها، جاءت مع جمع من رفيقاتها، تصحبه في مسيرته الغامضة فوق سطح البحيرة). وأسمع صوت أمّي (لا أدري كيف ظهرت بجواري بثياب النوم، في تلك اللحظة) تهتف مستنكرة «أين تراه يذهب هذا المجنون!؟ سوف يغرق حتماً، فقشرة الماء لن تقوى على حمله، هل يظنّ نفسه طائر نورس!» وما تكاد تتفوّه بكلامها هذا حتّى تبدأ قامة أبي - التي انكسرت في الحال - بالهبوط في مياه البحيرة شيئاً فشيئاً، وهو يجاهد للخروج، ولكن بلا جدوى، فكلمات أمّي، الخالية من الإيمان - والتي حملتها الريح إلى مسامعه



أدخلت الشكّ إلى نفسه، في قدرته على السير فوق الماء. وأهم بالنزول، والركض إليه لإنقاذه من الغرق، إلاّ أنّ أمي تتعلّق بذراعي، تجرّني إليها «لا فائدة يا ولدي، لا فائدة. دعه يذهب. لا أحد يريده هنا!» فأصيح بها حانقاً «أنا اريده! أنا أريده!» محاولاً تخليص ذراعي من قبضتها. في هذه الأثناء أرى - وأنا في حالة عجز كامل - وجه البحيرة ينغلق فوق جسده المتواري في الأعماق. ويعود سطح الماء إلى صفائه المتألّق في الشمس، ولا أثر من أبي، غير قبّعة القشّ القديمة، تطفو فوق الرقعة التي غاص فيها جسده. غير أنّ أمّي تظلّ تمسك بذراعي، وتهزّني بإلحاح، صوتها المضطرب يصيح بي «انهض انهض انهض! لماذا لم تذهب معه!؟ لماذا!؟ قل لي متى خرج!؟ وحين أفتح عيني أخيراً على كلماتها المذعورة، ووجهها الفَزِع، يصعقني ضوء النّهار، يملأ أرجاء البيت، فأقفز من سريري مذهولاً.

- أين أبي!؟

- ألم يوقظك لتذهب معه!؟

أرى عمّي، الذي غادر غرفته على أصواتنا، يقف بباب غرفتي بالبيجاما، يبدو مندهشاً.

- هذا أكيد، ذهب ليفعلها!

ترعبني كلماته الواثقة.

- لنلحق به بسرعة! ربّما..!

تصيح أمّي مضطربة

- وهل تظنين..!؟



- أرجوكَ! لا وقت للكلام!

وتهرع إلى غرفتها، تنزع عنها ثياب النوم، ويدخل عمّي إلى غرفته، يغيّر ثيابه، إلاّ أنّني لا أستطيع الانتظار ثانية واحدة، فأغادر الدار راكضاً إلى البحيرة، لأبحث عنك وحدي!



-٦-

التحقيق في ظروف مقتل أبي - أو انتحاره، كما يقولون - يجري بُعَيْد الظهر، في صالة الدار المبرّدة. الهواء خارج الدار ساخن، لا يهدّئ من حرارته كثيراً ما يخالطه من نسيم يمرّ في طريقه على وجه البحيرة الفسيح، فأشعّة الشمس تنزل ملتهبة، تجعل كلّ شيء على سطح الأرض العارية يتّقد. الدروب مقفرة، وإسمنت الممرّات الشديد الجفاف، أمام البيوت وحولها، يلهث بالحرارة. السابحون والسابحات، الذين كانوا يحتشدون على الشاطئ الرمليّ، يمرحون تحت بناية الفندق، حتّى منتصف النهار، هجروا الشاطئ تباعاً، حاملين حوائجهم، ومظلاّتهم الملوّنة التي ما عادت تنفع، ودخلوا إلى الفندق، أو البيوت، ينعمون بالبرودة المريحة. مع ذلك - برغم الحرارة القاسية - فثمّة عدد من النّساء والرّجال (نحو عشرة أشخاص) دفع بهم فضول لا يقاوم إلى التجمهر أمام باب دارنا، يتصيّدون الأخبار، واقفين في ظلال الأشجار، بالقرب من سيّارة شرطة سوداء، ركنها سائقها في الظلّ، لصق الحائط في واجهة البيت. ومن خلال زجاج إحدى النافذتين،



العريضتين بعض الشيء، الواقعتين على جانبي باب الدار، والمطلّتين على البحيرة، بالإمكان مشاهدة سطح السيّارة الأسود، الخافت اللمعان، وكذلك مشاهدة جانب من جذع سائقها، يقف على مقربة منها، يصغي إلى اللّغط الدائر بين جمهرة الرِّجال والنِّساء، وتكهُّناتهم حول ملابسات الحادث. ومن داخل البيت يمكن أيضاً رؤية سيّارة إسعاف بيضاء تركها سائقها تقف في الشمس غير بعيد عن سيّارة الشرطة. (في الحقيقة انا لا أدري ما جدوى وجود سيّارة إسعاف أمام بيتنا، في هذه الساعة، إذ كيف يتسنّى لك أن تسعف ميتاً!؟). سائق سيّارة الإسعاف، بثيابه البيض، ينزوي معنا داخل البيت، لا عمل له بيننا، غير أنّه يهرب من لفح حرّ الهجير في الخارج. مستنداً بظهره إلى الجدار البارد، بجوار الباب، يقوم بغلقه، كلّ مرّة يدخل أو يخرج فيها احد، من أجل الحفاظ على مستوى برودة الهواء داخل البيت، كأنّ احداً كلّفه القيام بهذه المهمّة. المحقّق رجل في نحو الأربعين، وكاتبه كهل أشيب الشعر، على وجهه انطباع محايد، لا يتأثّر بما يرى أو يسمع. الاثنان يجلسان الآن متجاورين على الديوان الموضوع لصق الجدار الأيسر من الصالة. وعلى كرسيّ منفصل، بجوارهما، يجلس ضابط شرطة، خلع بيريته الزرقاء عن شعره الأسود اللامع، ووضعها على طاولة مربّعة صغيرة أمامه، تتوسّطها صدفة خضراء الظهر، حليبيّة البطن، تستعمل منفضة لرماد السجائر. ضابط الشرطة يمسك بين يديه بعصا أبي السوداء التي عثروا عليها ملقاة على صخور الشاطئ. (بي رغبة مجنونة في أن أختطفها من يده، وأحتفظ بها لنفسي، ذكرى أب عزيز جعلاه يرحل بغتة. إلاّ انّني لا أجرؤ على الاقتراب



من الضابط، فأنا أخاف رجال الشرطة، مع أنّني لم أفعل بعد شيئاً مؤذياً يبرِّر هذا الخوف). ثمّة شرطيّ يقف باحترام في الجانب المقابل، بجوار جهاز التلفزيون المطفأ، في هذه الساعة، والذي يستقرّ، بشكل منحرف، على طاولة عالية بعض الشيء، تلمع قضبانها المعدنية، الفضيّة اللون، تحت ضوء مصباح النيون فوق إحدى النافذتين. جهاز التكييف، مواصلاً إرسال هوائه البارد، وطنينه الخفيض في فضاء الصالة، مثبت في أعلى الجدار، فوق جهاز التلفزيون تقريباً. على بعد نحو متر من المحقّق، وحيدةً على كرسيّ، تجلس أمي بشكل جانبيّ، قريباً من مدخل الممرّ المؤدّي إلى غرف النوم، ترتدي ثوباً محتشماً، أدكن اللون، لا أتذكّر أنّني رأيته عليها من قبل، وعلى وجهها يلوح حزن هادئ الآن، وفي عينيها، المحمرّتين بعض الشيء، نظرة شرود (لا أدري على وجه التحديد بماذا تفكّر بعد رحيل أبي!). يتوجّب على أمّي أن تستدير برأسها قليلاً من أجل أن تواجه المحقّق، كلّما طرح عليها سؤالاً، كما يتوجّب عليه أن يفعل ذلك هو أيضاً، ليرى ما يرتسم من تعبير على وجهها الذي جفّت عليه الدموع، حين تردّ على أسئلته. عمّي يقف أمام النافذة المواجهة لأمّي، يقطع بقامته الطويلة مسار جانب من ضوء النّهار المتدفّق من الخارج. (لا توجد كراسيّ كثيرة في هذه البيوت السياحيّة). الصالة تبدو مكتظّة، لم يسبق أن حضر فيها مثل هذا العدد من النّاس في وقت واحد، أثناء فترة إقامتنا في هذا البيت. الكاتب الكهل يضع أوراقه وسجلاّته على طاولة خشبيّة سطحها المستطيل لوح من الزجاج السميك، وهي الطاولة ذاتها التي ينصب عليها عمّي مائدة شرابه في المساء، عندما يختار أن يسكر



في البيت أحياناً، أمّي تقدّم له طاسات اللبن الخاثر، في شيء من التحفّظ، في حضور أبي الذي يقضي ساعات المساء محدّقاً إلى شاشة التلفزيون في شرود، ففي عالم آخر يبدو هو، لا يتكلّم إلاّ نادراً، حين يفيق من شروده، ليبدي ملاحظة ما حول مشهد من المشاهد، أو وجه من الوجوه، أثار اهتمامه على الشاشة. ويجد عمّي، الجالس باسترخاء، يستمتع بالشرب، والمأكولات الخفيفة، مثل هذه الملاحظات مسلّية، وإن بدت غير مفهومة له، في كثير من الأحيان، في حين تجدها أمّي مثيرة للأعصاب، لا أدري لماذا (على الأرجح تعتقد هي أنّ ملاحظات أبي، العفويّة في الظاهر، تخفي وراءها تلميحات جارحة). وأبي لا يكترث لرضى عمّي، ولا لانزعاجها، ويعود إلى شروده. وقبل الساعة العاشرة مساء، يمدّ يده إلى عصاه، نظراته على وجهي «ياللّه ابني! صار وقت النّوم! وراءنا قعدة الفجر!». ولا أنهض أنا في الحال، بل أظلّ جالساً دقائق أخرى، أتابع ما يعرضه التلفزيون، في حين تنهض أمّي، مثل جهاز مبرمج، وتتبعه متمهّلة إلى غرفة النوم، من أجل أن تعطيه جرعة دوائه الليليّة، وتعود بعد ذلك لتجلس في الصالة، تحدّق إلى شاشة التلفزيون، وتسمع ثرثرة عمّي الثمل، وفي عينيها تلوح علائم همّ خفيّ. على أيّة حال كلّ هذا غدا من حكايات أيّام ولّت، وهي حين تردّ على أسئلة المحقّق، في هذه الساعة، جالسة أمامه بوجهها المهموم، إنّما تتكلّم على كائن ما عاد يرى ويسمع، غدا محض شيء ملقى على الأرض، وعمّا قريب يطمر تحت التراب، ولن تراه بعد ذلك قطّ. والكاتب الكهل منشغل بتدوين ما ترويه أمّي بيد متعجّلة. أمّا أنا فعلى حافّة الجنون، أقف عاجزاً، لا أدري ماذا أفعل، وجثّة أبي



مسجّاة على البساط، في غرفة نومه، مغطّاة ببطّانيّة صفراء عتيقة، حملها عمّي وفرشها فوقه، حين كان ممدّداً على الشاطئ، والجثّة لا ترتفع كثيراً عن مستوى أرضيّة الغرفة، فأبي شديد الهزال، وهي تتمدّد عارية، بعد أن نزعوا عنها الثياب المنقوعة بالماء، ووضعوا الثياب على البساط بجوار الجثّة، كومة صغيرة من الملابس المتغضّنة، النديّة ماتزال، تلوح عليها حبّات رمل متناثرة جفّت قبل غيرها، تبدو مثل نقاط بيض صغيرة، عالقة بالقماش القاتم. وفردتا حذائه، المشبع الجلد بالماء، تستقرّان على البساط، الواحدة بجوار الأخرى، غير بعيد عن قدميه العاريتين، المغسولتين بماء البحيرة المالح، تبرزان عند نهاية الغطاء، كلّ واحدة منهما تميل إلى جانب، رؤوس أصابعهما تنطوي إلى الأسفل، مثل قدمي إنسان يموت من البرد. وبين وقت وآخر أتركهم في الصالة، وأجيء إلى غرفة نوم أبي، أتفقّد جثّته؛ أجلس عند رأسه أتأمّل انحناءات الجسد الضامر، ونتوءات العظام تبرز تحت الغطاء المبقّع ببلل خفيف. وأرفع البطّانيّة عن الوجه المهزوم الذي كساه الموت تحت الماء، والمكوث محشوراً هناك، بين الصخور في القاع، ساعات طويلة، ببياض غريب، شبيه بذلك البياض يلوح على أيدي النسوة يشتغلن بغسل الثياب طيلة النهار. إلاّ انّ الماء لم يبدّل كثيراً من ملامحه الوادعة. وأغطّيه بعد ذلك برفق، وأنفلت خارجاً من الغرفة، ومن البيت، قلبي يتفطّر، وبي رغبة محمومة في تحطيم كلّ شيء أراه في طريقي. وقبل أن يسألني واحد، أو واحدة، من الرِّجال والنِّساء المتجمهرين خارج الدّار، عمّا يجري في الداخل، أعود إلى البيت مرّة أخرى، اسمع ما ترويه أمّي للمحقّق من حكايات ملفّقة، واقفاً بمنأى عنها، تتمنّى هي، في هذه



اللحظة الحرجة من حياتها، لو أنّني وقفت بجوارها، أمسك بيدها المتهافتة، أخفّف عنها.. الطائشة الحمقاء! وأتأمّل وجهها المستكين - الّذي أحبّه وأكرهه - وهي تواصل سرد شهادتها بصوت متهدّج خفيض، أمام المحقّق الذي يعاملها برقّة، لا أدري لماذا!

- أنا أقدّر حزنك، ولن أزعجك بالكثير من الأسئلة. أريد أن أعرف فقط ما الّذي دفع به إلى قتل نفسه؟

- نصيبي!

- كان اللّه في عونك، ولكن لا بدّ من سبب. ألم يترك رسالة.. ورقة صغيرة يقول فيها..؟

- لا، لم يترك وراءه أيّ شيء.

- وهل كان هناك خلاف بينك وبينه؟

- أبداً. كنّا، أنا والمرحوم، متفاهمين في كلّ شيء.

(أحقّاً ما تقولين يا أمّي!؟)

- ما هو في تقديرك إذن السبب الذي جعله يُقْدِم على الانتحار؟

- إنسان مريض، أستاذ.

- وهل كلّ إنسان مريض ينتحر!؟

- لا طبعاً، ولكن المرحوم زوجي كان مريضاً في عقله.

- قصدك تقولين إنّه كان مجنوناً؟

- لا أستاذ، لا، لم يكن مجنوناً، إنّما كان يعاني حالة اكتئاب نفسيّ منذ عودته من هناك.



- هناك أين!؟

- عند الأعداء. كان أسيراً. رجع إلينا يكلِّم نفسه، ويكلِّم أشخاصاً يراهم وحده، ويخاطب الأشياء، أحياناً، كما لو كانت كائنات تسمع وتفهم!

يرنو المحقّق إلى يد الكاتب الكهل، بالعروق النافرة، تحاول بحركات سريعة، مثل نقرات عصفور خائف، تثبيت كلمات أمّي على الورقة أمامه، وضابط الشرطة يمدّ يده، في هذه الأثناء، بسيجارة مشتعلة، فيأخذها المحقّق من اليد الممدودة ساهياً. عيناه تواصلان التحديق إلى ما تخطّه يد الكهل. وعندما تتوقّف أخيراً يد الكاتب عن حركتها العجولة، وتستقرّ فوق الأوراق، ساكنة ومتحفّزة، يعاود المحقّق النظر إلى وجه أمّي.

- وهل قام بمحاولات سابقة للانتحار؟

- مرّات عديدة!

هذه العبارة لا تصدر عن أمّي، التي تتأخّر في الردّ، وتبدو حائرة، إنّما تندّ عن عمّي المتيقّظ لكلّ كلمة تقال. فيرفع المحقّق إليه وجهاً منزعجاً.

- بوسعك أن تقول ما تريد عندما يجيء دورك بالكلام!

- أنا آسف أستاذ.

يستدير المحقّق برأسه إلى أمّي.

- دعينا نسمع جوابك أنت. هل حاول المرحوم زوجك قتل نفسه، قبل هذا اليوم؟



تهزّ رأسها ان نعم، بدون أن تفتح فمها، أو تنظر إلى وجهه.

– ليكن جوابك بالكلام رجاءً، وليس بالإشارة.

– نعم أستاذ، حاول.

– متى وكيف؟ أريد أن أعرف.

– قبل أسبوع تقريباً.. نعم، أسبوع.. كان هو والولد يجلسان على الشاطئ. الولد لا يفارقه، دائماً معه، يخرجان إلى البحيرة كلّ يوم، فهو يحبّ أن يصطاد السمك، ولكن في كلّ مرّة تعلق واحدة بالشصّ يقوم بتخليصها، ويعيدها إلى الماء.

– يعيدها!؟

تبدو علائم الدَهَشِ على وجه المحقّق، في حين يبتسم ضابط الشرطة، ويصغي باهتمام أكثر، يداه تداعبان راس عصا أبي.

– نعم أستاذ، يعيدها إلى البحيرة، يقول إنّه يجري تجارب مهمّة، لها علاقة بمصير الجنس البشريّ.

– أيّة تجارب!؟

– لا ادري واللّه! على أيّة حال انا لا آخذ كلامه على محمل الجدّ، إنّما أسايره، في نزواته الغريبة، فهو، كما ذكرت لك أستاذ، ليس في كامل وعيه.

يظلّ المحقّق صامتاً لحظة طويلة نظراته على وجهها. ثمّ يلتفت إلى ضابط الشرطة، الذي كان يقول له شيئاً، بصوت خفيض، من وراء ظهر الكاتب الكهل، المنحني على الأوراق، يكتب بقايا الكلمات. يهزّ المحقّق رأسه موافقاً، ويعود إلى وجه أمّي.



- وهل لديكم تقارير طبيّة عن حالته الصحيّة؟

- موجودة.

يهرع عمّي إلى غرفته (فهو الذي كان يرافق أبي إلى الطبيب) ليأتي بالأوراق.

- كنت أقول لنفسي، ماذا يهمّ أجاء بما يصطاد من سمك إلى البيت، أم لم يجئ به. المهمّ عندي أن يتسلّى وينشغل ذهنه بشيء آخر، غير أفكاره السوداويّة، وظنونه المريبة. ويشهد اللّه أنّنا جئنا إلى هنا، لقضاء شهر على البحيرة، من أجل راحته، قبل أيّ شيء.

يمسك المحقّق بيد الكاتب، يوقفها عن الحركة.

- دعينا الآن من هذه التفاصيل. كلّميني عن محاولاته السابقة. ماذا فعل زوجك قبل أسبوع؟

(يطلق المحقّق يد الكهل).

- قبل أسبوع، كان هو..

تتوقّف أمي عن الكلام، إذ يخرج عمّي، في هذه اللحظة، من الممرّ بين غرف النوم، في يده ثلاث ورقات، أو أربع، يسلّمها إلى المحقّق، الذي يقلّبها في يده، ثمّ يضعها على حافّة المائدة، بجانب الأوراق التي يكتب فيها الكهل. ويعود عمّي ليقف في مكانه أمام النافذة.

- نعم، استمرّي. أنا أسمعك.

- كان يجلس على الشاطئ، مثل كلّ يوم، وابني يجلس بجواره..



- ابنك هذا من رجل آخر؟

- لا لا استاذ. انا لم أتزوّج غير المرحوم. انا قصدي أقول ابننا.

تردّ امّي في عجلة. وأنظر إليها بمقت؛ تريد ان تجرّد ابي من كلّ شيء. والحظ عمّي، الذي كان يتابع مجرى التحقيق باهتمام (ولعلّه يمرّن نفسه سرّاً، في هذه الأثناء، على صياغة الأجوبة الملائمة عن الأسئلة المحتملة، التي ربّما طرحها عليه المحقّق في ما بعد، حين يأتي دوره للشهادة) يرنو إلى وجه امّي ساهماً. غير انّ امّي، التي تبدو مرتبكة، لا ترفع راسها إليه.

- طيّب، وبعدين؟

- ذهبنا انا واخوه نطمئنّ إليه. نحن لا نتركه وحده فترة طويلة. الطبيب قال لنا لا تتركوه وحده وقتاً طويلاً، تسيطر عليه الافكار والخواطر السود. لذلك كنّا نشجّع الولد ليرافقه اينما ذهب، إن لم نكن نحن جميعاً معه.

(ما تقولينه الآن يا امّي كذب صريح، فأنتما تكرهان رؤيتي معه، تريدانني ان اذهب وأسبح على الشاطئ، أو الهو في غرفة الألعاب، في الفندق، وأنا ارافقه باختياري، لأنّه ابي، ولأنّني أحبّه، برغم قسوته عليّ أحياناً).

- جلسنا بجوارهما على الصخور، إلاّ انّه اخذ يتململ. لم يرتح لوجودنا بجواره، وهو يصطاد. قال إنّ السمك لا يحبّ الأصوات العالية. وطلب منّا ان نتركهما وحدهما ونذهب. فنهضنا، ورحنا نمشي على الشاطئ. ثمّ فوجئنا بالولد يصرخ فَزِعاً وراء ظهورنا الحقونا.. أبي غرق. فركضنا صوبهما. ولو لم يرمِ أخو زوجي

بنفسه وراءه في البحيرة، وينتشله من الماء بسرعة، لكان مات غرقاً في تلك المحاولة.

- وهل هناك حادثة أخرى من هذا القبيل؟

- مرّة دخلت عليه الغرفة في المساء فوجدته يمسك قنينة الدواء فارغة في إحدى يديه، وفي راحة يده الأخرى كومة من الأقراص البيض يوشك أن يبتلعها. فأسرعت إليه، أخذت الأقراص من يده، وأعدتها إلى القنّينة، ومن يومها وأنا أخفي عنه زجاجة المنوّم، وأجيئه بجرعته الليليّة، عندما يحين وقتها.

(ولكنّني لم أسمعك تذكرين هذه الحكاية العجيبة يا أمّي! لم أسمعك تذكرينها من قبل!)

يتريّث المحقّق قليلاً، ويرنو إلى يد الكهل تركض على الورقة. وأنظر أنا إلى عصا أبي السوداء، تقف الآن ساكنة، بشكل مائل، بين ساقي ضابط الشرطة، رأسها المعقوف يلامس حزامه العريض، وكعبها المحكوك يستقرّ على البساط الأخضر. يرفع الكهل رأسه أخيراً، وينظر إلى وجه المحقّق منتظراً، فيدير المحقّق رأسه إلى أمّي الّتي تجلس باستسلام، كفّاها البيضاوان الصغيرتان تنامان في حضنها، الواحدة فوق الأخرى، يلوح مهصوراً بينهما منديلها الصغير الناصع البياض، ترفعه بين وقت وآخر، تمسح به أطراف عينيها الخاليتين من الدموع.

- وغير هاتين المحاولتين؟

ترفع أمي وجهها إلى عمّي، غير أنّه يتجاهل نظرتها الحائرة، وجهه يظلّ ساكناً، محايداً، فتعود بوجهها إلى المحقّق.



- لا توجد أستاذ.

- أرجوك ان تكلّميني الآن على هذه المحاولة الأخيرة، الّتي ه ا، فيها. كيف تركتموه يخرج وحده، وأنت تقولين إنّ الطبيب..؟!

- غافل الولد.. قصدي غافلنا كلّنا.. لا أدري كيف! فنحن منذ جئنا إلى هنا، قبل اكثر من اسبوعين، وهو يأخذ الولد معه كلّ يوم، كلّ يوم، ويخرج به من البيت، مع النجمة. وهذا جعلنا نطمئنّ. وهكذا انسلّ وحده.. لم يوقظ الولد، عندما قرّر..

أمّي تبدو مضطربة، وعلى لسانها تتدافع الكلمات.

- تكلّمي على مهلك قليلاً، حتى يستطيع الكاتب..

- نعم، أستاذ. انا من عادتي، قبل أن أنام كلّ ليلة، ان أهيّىء لهما طعام الفطور، يأخذانه معهما في اليوم التالي..

تواصل امّي كلامها بصوت خائر، بطيء الإيقاع.

- وفي كلّ مرّة يستيقظ فيها، في ساعات الفجر الأولى، اشعر به يتحرك بجواري على السرير، يسعل، وألمحه، وانا بين النوم واليقظة، جالساً، لبعض الوقت، على حافّة السرير، بظهره المنحني، ينتظر نحو دقيقتين، أو ثلاث دقائق، قبل أن يمدّ يده ويأخذ عصاه، المركونة بجوار راس السرير، وينهض عندئذ، فهو يصاب بالدوار، ويسقط إلى الأرض، إذا ترك الفراش ونهض واقفاً في الحال. لذلك نصحه الطبيب بأن يظلّ جالساً كم دقيقة، قبل أن يقف على قدميه. على أيّة حال، انا اشعر به، في العادة، حين يفيق من النوم، فهو يتحرك، ويسعل كثيراً، وفي ما بعد، وأنا نائمة في الفراش، اسمع صوته، خفيضاً، ملحاحاً، يوقظ الولد من نومه - بلا رحمة - في



الغرفة الأخرى. وفي كثير من الأحيان، أستاذ، أسمع، في سكون البيت، وقع خطواتهما، وضربات عصاه على الأرض، والكلمات القليلة التي يتهامسان بها، في طريقهما إلى الخارج، وصوت باب الدار يغلق بحذر وراءهما. في أحيان نادرة يأخذني النوم، ولا أسمعهما يغادران.. نادرة جداً. ولا أدري ماذا حدث لي هذا اليوم! لا أدري!

يتهدّج صوتها فتسكت. ينظر ضابط الشرطة إِلى وجهي.

- هات لأمك كأساً من الماء!

أذهب إلى المطبخ، وحين أعود بالماء إليها، أراها تمسح عينيها بطرف منديلها، أناولها الكأس فتأخذها من يدي، عيناها ترنوان إلى وجهي بامتنان وحبّ. غير أنّني أقابل نظراتها الذليلة بوجه جامد الملامح، خال من أيّ إحساس بالتعاطف والشفقة، فلا تستطيع عندئذ أن تتمالك نفسها، فتختلج شفتاها، وتنخرط باكية بصوت مسموع، أوّل مرّة، في حضور الآخرين، في حضور الرِّجال الغرباء في الصالة، وفي عينيها لوعة وعتاب. فأسترجع الكأس من يدها المرتجفة، ريثما تهدأ قليلاً. وأوشك أن أضعف أمام وجهها الباكي، يدها البيضاء الصغيرة، الممسكة بالمنديل، تغطّي فمها. إلاّ أنّ سخطي عليها حجر أسود يغلق منافذ قلبي، فهي السبب، هي السبب!

- اهدأي أرجوك.. اهدأي. لنسترح قليلاً.

في نبرة المحقّق شيء من الإحساس بالندم، لإلحاحه بالأسئلة عليها؛ يظنّ أسئلته هي الّتي جعلتها تبكي. حين تكفّ عن نشيجها،



وتمسح عينيها وخدّيها، أمدّ لها يدي بالماء مرّة أخرى، متحاشياً النظر إلى عينيها اللامعتين هذه المرّة، حتى لا تعاودها نوبة البكاء. تتجرّع الكأس كلّها وتعيدها إليّ، ثم تتنفّس بعمق، كمن يخرج من تحت الماء، وبعد ذلك تجلس ساكنة، تنتظر ان يلتفت إليها المحقّق، الذي يتعمّد الاستغراق في قراءة التقارير الطبّيّة، من أجل ان يعطيها الفرصة، تهدأ، وتستعيد توازنها، في حين ينهض ضابط الشرطة، حال انفجار امّي بالبكاء، ويخطو صوب النافذة، متعكّزاً على عصا أبي، تحت نظراتي الحانقة، ليقف هناك، ويتشاغل بالنظر إلى الخارج. والمح في عيني رجل الشرطة، وسائق سيّارة الإسعاف، اللذين لا يكفّان عن التحديق إلى وجه امّي تخضلّه الدموع، وميضاً غريباً لا أرتاح إليه. أمّا الكاتب الكهل فعيناه تكادان لا تفارقان الأوراق، يظلّ يكتب فيها دقائق طويلة، بعد ان تصمت امّي عن الكلام في كلّ مرّة. وفي اللحظات القليلة التي يرفع فيها راسه عن أوراقه ينظر إلى وجهها، أحياناً، في شرود، وفي نظراته إليها ما يشبه حزناً دفيناً لا تعرف أسبابه. (لعلّ هذا الرّجل المحروق شعر راسه، يرى فيها ابنة مهيضة الجناح، يعجز عن مد يد العون إليها، او شيئاً من هذا القبيل). المحقّق وضابط الشرطة يبدو عليهما الشعور بالتعاطف مع امّي، أمّا مشاعرهما الأخرى نحوها فيخفيانها وراء قناع من التهذيب، تفرضه طبيعة الوظيفة، وظروف الموقف الكئيب. يتوجّب عليّ أن أعترف هنا (برغم أنّني اتكلّم على امّي) بأنّ مرآها، والدموع تلمع في عينيها، وتبلّل وجهها، المؤطّر بسواد شالها الحريريّ، تتهدّل أطرافه على صدرها، فوق قماش ثوبها الأدكن، يلفّ جسدها الممتلئ قليلاً، يستفزّ الغرائز النائمة في



أعماق أيّ رجل. (هذه الخواطر والأفكار تأتيني بالطبع في ما بعد، بعد سنوات طويلة، عندما أسترجع تفاصيل ما يجري في الصالة أمامي الآن، وأحاول أن أكتشف معنى للجوانب الغامضة والمحيّرة في علاقات النّاس، على هدى تجاربي اللاحقة، وما أتعلّمه على مرّ الزمن، ومن ذلك ما أسمعه، وأنا طالب في كليّة الحقوق، من بعض زملائي الطلبة، ونحن نلتقي في الزوايا والأركان، نتحدّث في أمور الجنس، وأسراره العجيبة، بعيداً عن مسامع الطالبات - اللواتي كانت لهنّ، بلا شك، خلواتهنّ الخاصّة هنّ أيضاً، يتبادلن فيها مثل هذه الأسرار، بجرأة أكبر ربّما - من أنّ المرأة وهي تبكي وتذرف دموعها، تثير غريزة الجنس في الرجل أكثر ممّا تثيرها وهي في حالاتها المزاجيّة الأخرى، إذ تبدو، حين تبكي، ضعيفة أمام فحولته، وهو يرى في بكائها دعوة له من أجل أن يحتضنها بين ذراعيه، ويأخذها إليه، بعيداً عن أذى الآخرين. ولعلّ كلّ هذا الكلام محض افتراضات لا أساس لها، يبتدعها الطلاّب أنفسهم).

وتبدو أمّي هادئة الآن، بعد أن شربت الماء، ومسحت الدموع عن وجهها وأطراف عينيها. ويعيد المحقّق التقارير الطبّيّة إلى مكانها على الطاولة، ويرفع وجهه إليها.

- هل نستطيع أن نستمرّ الآن؟

- تفضّل أستاذ.

المحقق ينظر في الأوراق أمام الكاتب.

ضابط الشرطة، الواقف بجوار النافذة (يتأمّل سطح البحيرة الفسيح، المتألّق في الشمس، والنوارس تحلّق فوق الماء، وصخور



الشـاطئ المقـفـر، تطلق صـرخـاتهـا الحـادّة بلا توقّف، وينظر إلى الواقـفين أمـام البـيت، تحت ظلال الأشـجـار، بين سـيّارة الشـرطة السوداء، وسيّارة الإسعاف، امتدّ عليها الظلّ، وكساها تماماً، من الباحثين عن الإثارة، يحرّكون بها سطح حياتهم الخاملة، ويبعدون عن نفوسهم السأم، بمتابعة أخبار الموت الفاجع، لم يتبقَ منهم الآن غير أربعة، أو خمسة، كلّهم من الرجال) يستدير، في هذه الأثناء، ويعود ليجلس في مكانه، حاملاً عصا أبي. وعمّي، الذي لم يبرح مكانه، يلتفت، بين وقت وآخر، ليرنو من خلال النافذة منزعجاً إلى المتطفّلين على أسرار حياتنا، يقف متجهّم الملامح، يتهيّأ للاصغاء إلى ما تقوله أمّي، ويستعدّ الكاتب، القلم في يده.

يرفع المحقّق رأسه عن الأوراق.

– كنت تقولين، ولا أدري ماذا حدث لي هذا اليوم..

– نعم، لا أدري ماذا أصابني. قبل ليلة سهرت أتابع فيلماً عربيّاً قديماً على التلفزيون. لو كنت أعرف أن..

(في الحـقـيـقـة أنا لا أفـهـم لماذا تسـهب أمّي في سـرد كلّ هذه التفاصيل الصغيرة، التي لا علاقة لها بموت أبي. أتراها تحاول أن تدفن السرّ الرهيب تحت كومة من الألفاظ تتفوّه بها، هكذا، كيفما اتّفق!؟ العجيب أنّ المحقّق يتركها تسترسل في هذا الهراء، ولا يقاطعها، بل يعاملها بكثير من العطف – الامرأة الجميلة المنكسرة، التي ترمّلت وهي لم تبلغ بعد الخامسة والثلاثين – وعمّي يلبس وجه أخ مكلوم، فقد شقيقه الأكبر، الذي كان له بمثابة الأب. وأنا.. أنا، المفجوع حقّاً، مثل طائر ذبيح، لا يعيرني أحد أيّ اهتمام!). ويبتسم ضابط الشرطة، ويترك عصا أبي تنطرح بين ساقيه، حين يسمعها



تتكلّم على سهرها لمشاهدة فيلم قديم، ولا أدري أيّة خيالات وأفكار تدور عنها، في هذه اللحظة، داخل رأسه. أمّا المحقّق فلا يبتسم، ويواصل الاستماع إلى ثرثرتها، التي لا علاقة لها بالموضوع.

- هذا السهر هو الذي جعل نومي يغدو ثقيلاً. وعندما أفقت من النوم.. في نحو العاشرة صباحاً.. مثل كلّ يوم، منذ جئنا هنا، وخرجت من الغرفة، فوجئت بالولد مايزال نائماً في فراشه. دخلت عليه مضطربة. المسكين اندهش، عندما رأى ضوء النهار يملأ البيت. بعد ذلك أسرعنا إلى البحيرة. ولكن كلّ شيء كان..!

يتهدّج صوتها وهي تلفظ كلماتها الأخيرة.

ويرين في الصالة صمت لا يسمع فيه غير طنين مكيّف الهواء، وصراخ النوارس فوق البحيرة، يصلنا كأنّه آتٍ من مكانٍ بعيدٍ، في حين يواصل الكاتب تدوين كلمات أمّي بيد متعجلّة، لا يندّ عن حركتها فوق الورقة أيّ صوت.

- كم قرصاً منوّماً تعطينه كلّ مساء؟

- أعطيه قرصاً واحداً، ولكن، في بعض الليالي، لا ينفع معه قرص واحد، ويظلّ يتقلّب على الفراش مهتاجاً، يضرب على فخذيه بغضب، كأنّه يضرب عدوّاً، فأضطرّ، عندئذ، إلى إعطائه قرصاً آخر.

(هذه المعلومات لا أعرف أنا مدى صدقها، فهي وحدها تنام بجواره، وتعرف ما يعاني. ولكن، إذا كان ما تقوله أمّي صحيحاً، ترى من يخبرنا لماذا كان الهياج ينتاب أبي على الفراش في قلب اللّيل، فيروح يضرب فخذيه، في غضب، كأنّه يعاقبهما!؟).



– وبرغم هذا المنوِّم تقولين إنّه يستيقظ مبكراً!

– مع النجمة، أستاذ، في الحقيقة أنا أرتاح كثيراً، في كلّ مرّة أجده فيها ينام هادئاً أكثر ساعات اللّيل، فهو حين يغفو ينام مثل جثّة. ولكن ما إن يقترب الفجر حتى يفزّ من نومه، كأنّه ما تجرّع دواء!

يتناول المحقّق التقارير الطبيّة، يقلّب فيها، ينتقي واحداً، ويعيد الأوراق الباقية إلى مكانها على الطاولة. يتمعّن في كلمات التقرير الذي اختاره، منتظراً، في هذه الأثناء، ان تتوقّف يد الكهل عن حركتها، وأمّي تنظر إلى وجهه في توجّس، لا تدري أيّ سؤال سوف يسألها، في اللحظة التالية. غير أنّ المحقّق لا يسألها، حين يفرغ الكاتب من التقاط كلّ الكلمات التي قالتها، ويضعها على الورقة، إنّما يضع التقرير الذي في يده أمام الكاتب.

– «اكتب. طبقاً لما ورد في التقرير الصادر عن الدكتور (انقل اسم الطبيب مثلما هو مكتوب، واذكر التاريخ أيضاً) فإنّ المومأ إليه (يتريّث المحقّق قليلاً، عيناه ترنوان إلى يد الكهل).. فإنّ المومأ إليه، موضوع هذا التحقيق، يعاني حالة اكتئاب نشأت لديه نتيجة ظروف الأسر القاسية التي عاشها، وأيضاً بسبب ما خلّفته فيه الإصابة من آثار جسديّة، ونفسيّة بشكل خاصّ. وتستلزم هذه الحالة رعاية متفهّمة من جانب الأهل. ومن المهمّ جدّاً عدم تركه ينفرد بنفسه فترات طويلة، لكي لا تتحكّم فيه هواجسه وأفكاره السوداويّة، كما ينبغي إشغاله بعمل يقوم به – أيّ عمل – يجعله يحسّ بأنّه – برغم كلّ شيء – مايزال إنساناً نافعاً، له دوره المؤثّر في الحياة من حوله».



(هذه الكلمات المحيِّرة أسمعها أنا أوّل مرّة عن أبي، ولا أجدها تنطبق عليه. وأشعر بخيبة كبيرة، إذ يداخلني إحساس مؤلم بأنّ المحقّق يبدو مقتنعاً تماماً بأنّ موت أبي كان انتحاراً أقدم عليه باختياره الحرّ، وليس موتاً مدبّراً بأيّ شكل. أرى أمّي تتنهّد، ثمّ ترفع وجهها تنظر إلى المحقّق، كأنّها تسأله عمّا إذا كان يريد منها شيئاً آخر).

- أتحبّين أن تضيفي كلاماً آخر؟

تهزّ رأسها نفياً.

- طيّب. هذا هو كلّ شيء الآن. أتعبناك.

- هل أستطيع أن أذهب.. أرتاح قليلاً؟

صوتها يبدو متعباً، كسيراً.

- طبعاً طبعاً. لحظة صغيرة فقط، توقّعين على الشهادة، وبعد ذلك..

عمّي يبدو الآن قلقاً، إذ يقترب دوره ليروي جانبه من الحكاية. ويتابع المحقّق يد الكاتب، الراكضة على الورق. وعندما تسكن أخيراً، يمدّ الكهل يده بالقلم إلى أمّي، فترقبها العيون وهي تنهض، ثمّ وهي تخطو إلى الطاولة، ثم وهي تنحني أمام الأبصار، وتأخذ القلم الممدود إليها، وتخطّ توقيعها، بيد مضطربة، حيث أشارت لها الإصبع اليابسة، ثم وهي تتمتم شيئاً، وتستدير ماشية، كالنائمة، لتدخل في الممرّ، بين غرف النّوم، حيث ينام أبي، على البساط، وحيداً، وبجواره كومة ثيابه المبلولة. إنّما تدخل غرفة نومي، لتريح نفسها على سريري. أسمع، في هذه الأثناء، لغطاً في الصّالة



ورائي. يبدو أنّ المحقّق بدأ يوجّه أسئلته إلى عمّي. أقف في باب غرفتي، أستند بكتفي إلى قائم الباب، ارمقها في صمت، بعينين محتقنتين، فترنو إلى وجهي، جالسة على حافّة السرير، في عينيها ما يشبه الاعتذار، أو الشعور بالذنب (وربّما ليس في عينيها أيّ شيء من هذا القبيل. إنّما انا الذي يتخيّل أشياء لا وجود لها، واقرأ افكاري وخواطري على وجوه الآخرين لأريح نفسي قليلاً).

تؤلمها نظراتي المكتظّة بالشكّ والاتّهام.

– تعال ابني!

في نبرة صوتها ضراعة؛ تريد ابناً يتفهّمها، يحنو عليها، تستند إليه في محنتها فيمنحها القدرة على الثبات، لا ابناً يقاضيها.

– تعال، أرجوك. اجلس هنا.. بجوار أمك.

تربّت بكفّها على الفراش بجانبها، أهزّ راسي رافضاً، وفي عينيّ نفور يصل حدّ المقت. تصدمها نظراتي الشديدة القسوة، ترجّ كيانها. فترفع، عندئذ، كفّيها البيضاوين الصغيرتين تغطّي بهما وجهها، صوتها المخذول يهتف في لوعة «يا إلهي! يا إلهي» وتجهش باكية، جسدها يتهافت ساقطاً على فراشي. يفاجئني انهيارها المحزن، فأضعف قليلاً، واوشك ان اذهب إليها، امسح بيدي على راسها مواسياً، إلاّ أنّني أمسك نفسي في اللحظة التالية، إذ إنّ خاطراً يدهمني بغتة، ويفتح بصيرتي، فهذا البكاء المنطلق، البكاء الحرّ، المسترسل بلا توقّف، هذا البكاء المريح، ليس بكاء إنسان يمزّقه الاحساس المضني بالفجيعة لغياب شخص عزيز، لا، إنّما هو بكاء الشعور بالانفراج، بعد شقاء طويل (فجأة تتفتّح أبواب السجن



الذي حبسها أبي بين جدرانه دهراً؛ فجأة تتهاوى الجدران فتتدفق الدموع التي كانت حبيسة وراء سدود من الكبت والاصطبار، تنتظر لحظة الخلاص التي حلّت أخيراً). هذه الدموع، إذن، تفيض الآن بلا كوابح، لتغسل عن صدرها هموماً تراكمت طوال سنين، اضطرّت هي فيها أن تعيش برفقة أبي، لا بدافع الوفاء الزوجيّ، لا، إنّما بدافع الخضوع للتقاليد والأعراف، حتّى لا يقال عنها إنّها امرأة لا تعرف الإخلاص، هجرت زوجها حال عودته من الأسر، معطوب العقل والجسد، فاقد الرجولة. أمّا هو - الراقد تحت الغطاء عارياً، في الغرفة المقابلة، على بعد أمتار منها، والذي لا أسمعه يبكي - فما عاد سجناً يحاصرها بجدرانه العاتية، ولا عقبة تسدّ عليها طريق العيش على هواها. لا يا أمّي، فبكاؤك المسترسل الآن - والذي سوف تنامين بعده، وأنت في حالة من الصفاء، وراحة البال، لم تعرفيهما من قبل - ليس بكاء حزن وفجيعة، لغياب زوج محبوب، أبداً أبداً، فبكاء الفجيعة التي تمزّق الروح، الفجيعة المدمّرة، التي تجعل كلّ شيء في الدنيا يبدو ميؤوساً منه، شديد السواد، هذا البكاء الفريد، سوف تجرّبينه في ما بعد، سوف تغرقين فيه، بعد إحدى عشرة سنة (وأنا في عامي الرابع والعشرين) حين ينتشلون جثّة عمّي، بنطلونه مفتوح الأزرار، من هذه البحيرة ذاتها، ومن مكان لا يبعد كثيراً عن الشاطئ الذي عثروا بقربة على جثّة أبي ظهيرة هذا اليوم. وسوف تصابين بحالة من الهستيريا لم أرَ منك مثلها، وتندفعين صوبي في هياج، عيناك محتقنتان بالدم والدموع، تضربين على صدري، بقبضتيك الاثنتين، بقوّة لا أدري من أين جاءت لجسدك المترف الهشّ، وصوتك الملتاع يصرخ في وجهي



«اتدري مـاذا فـعلت يا مـجنون! يا مـجنون!» وزوجـتـي المضطربة الحائرة، تتشبّث بك من الخلف تجرك إليها، لتبعدك عنّي، وتهدّئ من ثورتك، لا يعرف دوافعها أحد غيري، وأنت لا تتوقّفين عن الضرب على صـدري والعـويل «يا مـجنون! يا مـجنون!» حـتى تفـيـقـي على النظرات المبهـوتة، يرمقك بـها الرِّجال والنسـاء الذين دخلوا صـالة الدار بدافـع الفضـول، على صـوت صـيـاحك، فـتـتوقـفين عندئذ عن الضـرب على صـدري، والـهـذيان بكلمـاتك الرعناء التي توشك أن تعرِّضني للاتّهام، ومـا يتبع ذلك من نتـائج خطيـرة. وتـهـرعين إلى غرفـتك، توصـدين بـابها، لتـتـمزّقي بين جـدرانها وحـدك، بمنأى عن العـيـون. وعندمـا تـخـرجين إلينا، بعـد ذلك، تبـدين فـي حـالة مـريعـة، مـريعة، شـعـرك منفـوش، ثوبك ممزّق عند الصـدر، ووجـهك تشـوّهه الغضـون، كأنّك تقدّمت في العمـر عشرين عـامـاً، في سـاعة واحدة! (أيمكن أن يشيخ الإنسان بـهذه السـرعة يا أمي!). تلك هي الفجيعة المتـفـجِّـرة من أعـمـاق الروح النازفـة، سـوف تـتـجلّـى أمـامي، بكلّ مظاهرها المثيرة للشفقة والاشمئزاز، يوم انتهاء حياة عمّي غرقاً في البـحـيـرة (كـأنّ قـدر هـابيل وقـابيل أن يموتا فـي مـاء هذه البـحـيـرة المالح!) بلا دليل على الإطلاق – فـي الحـالتين – على وقـوع عنف خـارجيّ، من أيّ نوع، على الجـثّـتين، أو وجـود سـمـوم قـاتلة في الأحشـاء، غير قدر قليل من ترسّبات مـادّة مخدّرة في دم أبي، وقدر كـبيـر من الكحـول في دم عـمّي وانسـجـتـه، زائداً بنطلونه المحلول الأزرار، الذي جعل المحقّقين يميلون إلى الاعتقاد بأنّه وقف ثملاً على صخور الشـاطئ، من اجل أن يتبوّل، فترنّح وسقط في البحيرة، دون أن ينتبه له أحد. ولكن لماذا كلّ هذا الإحسـاس بـاللوعة والضـيا ع، يا



امّي، كأنّ العالم كلّه تلاشى، وغدا دخاناً، بموت سكّير فاسق، تكتظّ دروب مدن الدنيا وشوارعها بحشود من أمثاله التافهين، في حين انّ موت أبي - الطيّب الوديع - لا يحرّك في نفسك غير الشعور بالتحرّر والانعتاق!؟ لماذا!؟ لماذا!؟ لا تقولي إنّ لحمنا الملعون يفرض علينا احكاماً لا طاقة لنا على عصيانها، وما نحن غير عبيده الطائعين!؟ لا تقولي مثل هذا الكلام!

اترك أمّي تسترسل في بكائها المريح، يهدهدها طنين مكيّف الهواء، جسدها يتكوّم على فراشي، وراسها مدفون بين طيّات وسادتي (لعلّ إصرارها على النوم في سريري يمنحها الإحساس بأنني قريب منها، لا أرفضها كلّ الرفض. ومع هذا الإحساس المهدّئ سوف تنام مطمئنّة بعد قليل). أعود أنا إلى الصالة لأستمع إلى مزاعم عمّي (الذي مايزال على قيد الحياة، في الوقت الحاضر) يرويها إلى المحقق بصوت متوجّس، غير انّه هادئ النبرة.



-٧-

عمّي يجلس الآن على الكرسيّ الذي جلست عليه أمّي قبل قليل تحكي شهادتها. وعلى عكسِ أمّي فإنّ كلمات عمّي محسوبة بعناية، وخالية من أيّة ثرثرة ربّما جرّته إلى زلّة لسان، لا يعرف أحد عواقبها. أسمعه يقول للمحقّق إنّ قلبه كاد يتوقّف عندما خرج من الدار راكضاً، وفوجئ بالشاطئ أمام صفّ البيوت مقفراً تماماً، ولا أحد يجلس على الصخور، في المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه شقيقه كلّ صباح. فراح يعدو صوب البحيرة مثل مجنون، ولكنّ سطح الماء كان ساكناً. ودهمه مشهد قبّعة القشّ - الّتي تكاد لا تفارق رأس أخيه - تطفو في الشمس، فوق رقعة من الماء، غير بعيد عن الشاطئ، ولا أثر حتّى لفقّاعة واحدة على وجه البحيرة، ولا فقّاعة واحدة، فقال لنفسه، فعلها أخوه أخيراً، فهو منذ مدّة طويلة يسعى إلى هذه الخاتمة لحياته، حتّى إنّ بعض الذين جاؤوا إلى هنا، من أجل النزهة، وأقاموا في البيوت المجاورة، يعرفون بهذه الحكاية - يقول عمّي - «فمثلاً، أستاذ، المرأة التي تسكن البيت بجانبنا رأته يرمي بنفسه في البحيرة، قبل أسبوع. كانت تقف وراء



نافذة بيتها في الصباح، وشاهدت ما حدث، وهرعت إلى الشاطئ». وهو لا يظنّ أنّها تمتنع عن ذكر ما رأت في ذلك اليوم.

وبعد أن ينتهي عمّي من الردّ بلباقة على كلّ الأسئلة، يقرّر المحقّق استدعاء جارتنا للاستفسار منها عمّا حدث. (ويطلبون منّي أن أرافق رجل الشرطة وأدلّه على بيت هذه المرأة، التي أثارني رنين صوتها، والتي ظنّت، في الأيّام الأولى لسكناها، هي وزوجها، في البيت السياحيّ بجوارنا، أنّ عمّي هو أبي «هذا الشابّ بالنظّارات السود أبوك؟» تستوقفني وأنا أخرج من البيت وحدي في المساء. فأقول لها إنّ أبي هو الرجل الذي أخرج معه إلى الصيد كلّ صباح. «ذلك الكهل المعوق!»؟ فأنظر إليها في حنق. «أبي ليس معوقاً. أبي رجل شجاع، حارب دفاعاً عنك وعن غيرك»! فتبتسم، وتهزّ رأسها، وفي عينيها نظرة إشفاق لا ارتاح لها. ومنذ تلك اللحظة كرهتها، لا لقولها عن أبي إنّه كهل معوق فقط، بل لرنّة الاستخفاف في صوتها. ولا تفاجأ جارتنا، حين ترى رجل الشرطة، بزيّه الرسميّ، يقف على الباب وأنا برفقته، كأنّها كانت تنتظر مثل هذه الدعوة. وتسألني – لا أدري في حينها لماذا – عن عدد الرّجال عندنا في البيت، فأخبرها بعددهم. وبعد فترة تدخل علينا متأنّقة، يرافقها زوجها – شابّ في الثلاثين يملأ الشيب رأسه، منذ الآن – يحمل على يديه صينية كبيرة، عليها أواني شاي، وصحون ملأى بالمعجّنات. ويظلّ الزوج واقفاً وسط الصالة، يحس بثقل الصينيّة على يديه، ويتلفّت حائراً لا يدري في أيّ مكان يضعها. فيرفع عندئذ ضابط الشرطة (البيريه) التي تركها فوق سطح الطاولة الصغيرة أمامه، يضعها على فخذه، ويحمل صدفة الرماد التي امتلأت بأعقاب السجائر، يضعها على



البساط عند قدميه، ويدفع بعد ذلك بالطاولة إلى الأمام قليلاً، صوب الزوج الحائر. «ضع الصينيّة هنا!» فيتخفّف الرجل من حمله مبتسماً بامتنان لضابط الشرطة، ويبعد الضابط عنه عصا أبي - فما عاد العبث بها يسلّيه - يسندها إلى ظهر الكرسيّ وراءه، ويتهيّأ، مستأنساً، لشرب الشاي من اليد البضّة لهذه المرأة ذات الوجه المتفتّح، والجسد المثير، حلّت بينهم، وسط الحديث الكئيب عن الانتحار والموت، هبة سخيّة من سماء رحيمة، في حين يرمقها المحقّق بنظرات متفحّصة، حائراً في امرها (مستحسناً بلا ريب فكرة استدعائها للشهادة) وهي تنحني بجسدها الطويل على دورق الشاي، في مواجهة ضابط الشرطة، لتسكب منه في الأكواب البيض اللامعة. ويمتلئ في الحال هواء الصالة البارد برائحة الشاي، يتصاعد منه البخار ممتزجاً بعبق عطر نسائيّ نادر. ويتحرك سائق سيّارة الإسعاف، لاشعورياً، فيفارق الباب، ويقترب من وسط الصالة، كأنّ يداً خفيّة جرّته من مكانه الّذي ظلّ يقف فيه طوال الوقت، في حين يبدو رجل الشرطة - الذي كان يقف، حتّى الآن، بخضوع واحترام - اقلّ اكتراثاً بوجود رئيسه في المكان. حتّى الكاتب الكهل والذي ما كان يرفع عينيه كثيراً عن أوراقه، اثناء التحقيق مع امّي وعمّي، يبدو الآن سعيداً هو أيضاً (لست ادري اكان السرّ في سعادة الكهل حضور المراة، ام حضور الشاي، ام حضورهما معاً). امّا عمّي، الذي كان يقف أمام النافذة، ذراعاه مكتوفتان على صدره، فيبدو راضياً كلّ الرِّضا عمّا يجري، إذ إنّ الجوّ الرسميّ - المشحون بالظنون والاحتمالات المجهولة - المهيمن على الصالة، حتّى الآن، ينقلب بسرعة عجيبة، ويغدو بهيجاً



(بالنسبة إلى الآخرين بالطبع، لا بالنسبة إليّ أنا الذي أتآكل من الغيظ، ولا إلى أمّي الغافية على فراشي، بعد أن أراحها البكاء) وجارتنا، يساعدها زوجها المسالم، تقوم بتوزيع الشاي، وصحون المعجّنات على الحاضرين، تروح وتجيء، تنهض وتمشي، وتتلفّظ بكلماتها المجاملة لهذا وذاك، مثل مضيفة حاذقة دعت جمعاً من النّاس إلى حفلة شاي في بيتها (فهي أخذت تتصرّف كأنّها في بيتها فعلاً، لا بيت امرأة أخرى، مات عنها زوجها هذا النهار، وهي تكاد لا تعرف عنها شيئاً) وعيناها تلمعان سعادة، مستمتعة، إلى أقصى حد، بتأثير سحرها في الرِّجال في الصالة، تحسّ بنظراتهم المفتونة عليها، كأنّهم يلمسونها لمس اليد - مثلما تستمتع قطّة شبعانة بدفء أشعّة الشمس، تنام مسترخية، ومغمضة العينين، في ركن حديقة، بجوار سياج تغطّيه نباتات تفوح منها رائحة أوراق أدفأتها الشمس. على هذا النحو تبدو لي جارتنا منتشية وسعيدة، تتنقل بين عيون الرِّجال بحرِّيّة، وبلا شعور بالحرج (زوجها، الذي يستجيب مذعناً للطلبات، توجّهها إليه بنظراتها الموحية، أو بكلماتها الموجزة، من مثل «شاي للسائق» وما شابه، هو وحده يلوح عليه الشعور بالحرج والارتباك) إذ ليس لديها هي ما تخشاه، لا من المحقّق، ولا من ضابط الشرطة الذي يبدو راضياً عن مهمّته، أوّل مرّة منذ دخوله بيتنا. وتسترخي الوجوه، لا يفارقها الابتسام، وتندّ ضحكات، وقورة متردِّدة في البداية، من باب الاحترام للميت، الذي يهيمن بحضوره المثير للقلق على جوّ البيت، ثم في انطلاق مرح في ما بعد من ضابط الشرطة بشكل خاصّ. وتغدو جثّة أبي المسجّاة على البساط، وراء الجدار، شيئاً منسيّاً. ويفقد الموت وقاره؛ تنتصر



عليه امرأة فاتنة لعوب، لا تكترث لشيء غير متعتها. (من جانب اخر - أسترسل في التفكير، وأنا الآن في عمر الرجال، متزوّج واب لطفل صغير، ومشاهد اليوم الفظيع الذي غيّر حياتي برمّتها، تمرّ بوضوح أمام عينيّ، مثل مشاهد فيلم مأساويّ، يعرض على شاشة كبيرة، والخواطر والانطباعات التي يثيرها الفيلم، تتداخل في راسي - أنّ هؤلاء الرِّجال المتجمِّعين هذا اليوم، في صالة الدار، للتحقيق في ظروف موت أبي، والذين تجاهلوا لبعض الوقت، المهمّة التي جاؤوا من أجلها، فراحوا يشربون الشاي، ويأكلون ويضحكون، ويتبادلون الكلمات المجاملة مع المراة الجريئة، متلذّذين بالنظر إلى طلعتها الحلوة، والاستماع إلى صوتها تتكلّم - لم ينسوا في الحقيقة، رهبة الموت، لسبب بسيط، هو أنّ موت الآخرين غدا مبتذلاً، منذ زمن بعيد. ربما أثار الموت شيئاً من الرّهبة في قلب صبيّ في عمري، زائداً إحساسي الموجع بالفجيعة، لموت إنسان أعزّ عندي من أيّ شخص آخر في الدنيا. أمّا التعابير الجادّة التي اشهدها على وجوه الرجال - قبل دخول جارتنا - يتكلّمون في تحفّظ ووقار، فهي من باب المجاملة لأهل الميت. إذن فالمراة - إذا تأمّلنا الموضوع بلا انفعال صبيانيّ (أقول لنفسي وأنا اكتب هذا الاعتراف) لم تنتصر على الموت، فهو مخذول في الأساس، وليس له من سطوة، غير ما يثيره من قلق في النفوس، على الصعيد الشخصيّ، أحياناً، حين يتحسّس الواحد منّا اقتراب أجله المحتوم، أو يتأمّل - جالساً وحده، في عزلة موحشة - في هذا المصير المحزن. وبعد أن يفرغ الجميع من شرب الشاي (أنا لا أتناول من يدها شيئاً، وهي لا تلحّ عليّ كثيراً؛ تظنّ أنّ سبب امتناعي هو حزني على رحيل أبي) بمن فيهم عمّي، أحسّ - دون أن أرى - نظراته المعجبة إليها، يتحاشى



الابتسام بشكل يوحي بأنّ بينهما سرّاً، لا يريده أن يفتضح. كما تتحاشى هي، من جانبها، الاهتمام به على نحو يميّزه عن الآخرين، وبرغم حرصهما، أحسّ سريان تيّار خفيّ من التفاهم بين الاثنين، لا يلحظه أحد، مثل مياه تجري تحت سطح الأرض، خلال التربة والصخور، في موضع نهر مدفون، كأنّ حواراً صامتاً يدور بينهما، حتّى وهي تدير إليه ظهرها، منشغلة بدور المضيفة، لا تنسى أحداً من مدعوّيها. ولعلّ إحساسي هذا وليد معرفتي، أنا وحدي، بالعلاقة التي تطوّرت بين عمّي وجارتنا، خلال أيّام قصيرة، قبل مقتل أبي.
ويجمع زوجها (الذي لم يقل، طيلة الوقت، غير كلمات قلائل، مثل «شكراً» و«العفو»، وهو يتناول كوباً، او صحناً فارغاً، من يد ممدودة، أو «هل تحبّ مزيداً من الشاي؟» وما شابه) الأواني، ويحمل الصينيةً بما عليها، ويغادر البيت، ولا يظهر بيننا بعد ذلك. وتجلس هي أخيراً على كرسيّ الشهود، في ما يشبه الزهو، إذ إنّ كلماتها سوف تُسمع، وتُكتب كلمة كلمة، ويكون لها أثر محسوب في مجرى التحقيق (وسوف تكون تجربتها المثيرة على البحيرة – لا تجربتها مع عمّي طبعاً، والتي لا يمكن البوح بها – موضوعاً شائقاً للحديث، حين تعود مع زوجها إلى بغداد، وتلتقي صويحباتها. «هل تعرفن ما حدث عندما كنّا..!؟ إلى آخره، إلى آخره). لذلك فهي تجلس الآن مزهوّة، على الكرسيّ المجاور للمحقّق، يتهيّأ لاستجوابها، منبسط الوجه. وتؤكّد له (وهي ليست لديها أيّة فكرة عن تاريخنا العائليّ) انّ أبي حاول الانتحار فعلاً، قبل أسبوع؛ هي شاهدته، من نافذة البيت المطلّة على البحيرة، يجلس هو والولد على الصخور، يصطاد الأسماك، مثلما يفعل كلّ يوم، فمراهما، هو والصبي، يجلسان هناك، ساكنين تقريباً، في مواجهة البحيرة،



هيكلاهما يلوحان لها صغيرين أمام انبساط سطح الماء الشاسع، غدا بالنسبة إليها جزءاً شبه ثابت من المشهد برمّته. وبغتة يتحرك الرجل، ينهض مستنداً إلى عصاه، ثمّ ينهض الولد. ويظلّ الرجل واقفاً في مكانه بعض الوقت، وجهه صوب البحيرة، والصبيّ ينتظر، ويؤشّر بيده، وهي ترقبهما من بعيد، واقفة أمام نافذة بيتها. ترى مذهولة جسد الرجل يرتفع قليلاً في الهواء، مفتوح الذراعين – يلوح لها مثل طائر كبير غريب الشكل – ثمّ يهوي إلى الأسفل، ويختفي وراء الصخور. وترى الصبيّ المرعوب يلوّح بذراعيه، طالباً النجدة، صرخاته تصل إليها واهنة، ثم تشاهده يرمي بنفسه في الماء خلف أبيه، ويقفر الشاطئ منهما في رمشة عين. (حدث كلّ شيء بسرعة، بسرعة لا تصدّق!) فتخطف هي عباءتها من على المشجب، وتهرع صوب البحيرة، لترى إن كان بمقدورها أن تساعد بأيّ شكل. وحين تصل إلى الشاطئ، تجد أخاه «هذا السيّد الواقف هنا» (تشير بيدها إلى عمّي) يعوم في مياه البحيرة، بثيابه، يحاول إخراجه. وترى – مندهشة – الغريق يصارع أخاه في الماء، فيتأكّد لديها، عندئذ، أنّ الأخ المعوق كان عازماً على قتل نفسه، لا تدري لماذا! (لا أستطيع بالطبع أن أقول إنّ ما ذكرته جارتنا في كلامها غير صحيح كلّه، إلاّ أنّ ادّعاءها انّ أبي كان عازماً على قتل نفسه هو ادّعاء – إذا افترضنا فيها حسن النيّة، ولست اظنّها متورّطة في شيء، هي نفسها – يعتمد، بدرجة كبيرة، على رؤية المظاهر الخادعة للأشياء).

حين تنصرف المرأة بعد ذلك، تشيّعها عيون الرّجال، حتى تختفي بقامتها، وينغلق الباب، يجيء دوري أنا لأقول ما عندي. ولكن ماذا اقول انا، بعد كلّ الكلام الذي سمعه المحقّق، وثبّته الكهل في



أوراقه!؟ ويحاول المحقّق أن يعيد إلى الجلسة طابعها الرسميّ، ووقارها اللّذين زعزعتهما جارتنا بحضورها المثير، فلا ينجح تماماً - وإن كان سائق سيّارة الإسعاف عاد يقف مكانه، بجوار الباب، ورجل الشرطة ينتصب متهيّئاً لتنفيذ الأوامر، والكاتب الكهل مستعدّاً لتسطير ما يقال - فضابط الشرطة يمدّد الآن ساقيه أمامه، باسترخاء، ويبتسم مع نفسه، في عينيه نظرة ساهمة، والمحقّق نفسه يبدو مستعجلاً، يريد أن ينتهي من كلّ شيء بسرعة. ولا يدعوني المحقّق إلى الجلوس، بل يعاملني صبيّاً صغيراً، لا يفهم شيئاً من أمور الدنيا (كما يعتقد هو بالطبع) غير أنّه، مع ذلك، يعاملني بعطف كما يعامل النّاس، في العادة، طفلاً يتيماً. ويجعلني سلوكه هذا معي أشعر بالضيم، بشكل أكثر حدّة، فأرنو إليه بعينين حزينتين، يداي تتدلّيان متشابكتين تحت بطني، أترقّب أسئلته صامتاً.

- يقولون إنك كنت معه عندما أراد أن ينتحر في المرّة السابقة. حدّثنا كيف حاول أن يفعل ذلك؟

- هو ما أراد أن ينتحر في المرّة السابقة.

- إذن ماذا كان يريد أن يفعل، في رأيك يا ابني، عندما ألقى بنفسه في البحيرة؟

- كان يريد أن يتبرّد.

تندّ ضحكة صغيرة عن ضابط الشرطة، فأود لو ضربته صاعقة. إلاّ أنّ المحقّق لا تتغيّر ملامح وجهه.

- كان يريد ماذا!؟

- عندما سألته، في ما بعد، لماذا أردت أن تنتحر يا أبي، قال لي



إنّ اليـائس، أو المجنون، هو الذي ينتحـر، ولكنّه شـعـر أنّ روحـه تشتعل، وأراد أن يتبرّد بالماء.

- وهل كان أبوك يعرف السباحة؟

- كان يقول إنّه يعرفـها، ولكنّني لم أشاهده يسبح، فهو مريض، سيّدي، قصدي مصاب بعموده الفقريّ، ويمشي على عكّاز.

- ومع ذلك رمى بنفسه في البحيرة!

أظلّ صامتاً، محرجاً، إذ بماذا أجيب؟

- وهل صـحـيح مـا قـالتـه لنا أمك من أنّه كان يكلّم نفسـه، في بعض الأحيان، وأنّه كان يعيد الأسماك التي يصطادها إلى الماء؟

- كثـير من النّاس يكلّمون أنفسـهم، سيِّدي. أما عن الأسـمـاك فكان يقـول إنّه يريد أن يرى الفـرق بين سلوك بني آدم، وسلوك هذه الحيوانات المائيّة الغبيّة. ولكنّ أبي لم يكن مجنوناً.

- طبعـاً طبعـاً.. مـفـهـوم. لا أحد يقول إنّ أباك كان مـجنوناً.. لا أحد. هو، مثلما قلت أنت، كان مريضاً فقط.

ويعـذّبني شـعـور مـوجع (حـتّى هذه اللحظة، وأنا أكـتب هذه السطور، بعد كلّ هذه السنين!) بأنّ كلماتي، التي أقولها بصدق، هي ذاتها تخذلني، وتؤكّد - بخـلاف رغبتي - قناعة المحقّق، البادية من طريقته في صـيـاغة الأسـئلة، بـأنّ أبي مـات منتحـراً، بإرادته الحـرّة، لاختـلاله النفسـيّ، ولم يقـتله أحـد. وسـوف أظلّ، إلى نهـاية عـمري، الشخص الوحيد - باستثناء من دبّر موته بالطبع - غير المقتنع بهذا الاستنتاج الغريب. وكم تمنّيت.. كم تمنّيت لو أنّ هناك وسيلة أخرى، غير الكلمـات، أوصل بها مـا يدور في رأسي إلى ذهن المحقّق، ولكن



للأسف لا توجد وسيلة أخرى. وهكذا تنغلق القضيّة، غير أنّها تظلّ مفتوحة بالنسبة إليّ أنا.. تظلّ مفتوحة.

ويطلب المحقّق من عمّي البقاء في منطقة البحيرة أيّاماً أخرى، ريثما يصل تقرير الطبيب العدليّ، ثم ينهض واقفاً، يلوح عليه الإرهاق. ويلملم الكهل أوراقه، ويفيق ضابط الشرطة من شروده، ويهبّ واقفاً، تاركاً عصا أبي في مكانها، تستند إلى ظهر الكرسيّ. ويأمر المحقّق بحمل الجثّة إلى سيّارة الإسعاف، ونقلها بعد ذلك إلى معهد الطبّ العدليّ في المدينة، ويسارع إلى مغادرة الدار، برفقة ضابط الشرطة. وتفتح أمّي عينيها على الجلبة، يثيرها الرِّجال بدخولهم على أبي، فتنهض عن سريري، وتقف في باب غرفتي، ترقبهم حزينة، تذرف بعض الدموع، وهم يحيطون بجثّته المسجّاة على البساط، وترى عمّي ينحني على جسد شقيقه، ويحمله كما يحمل طفلاً يغفو، ملفوفاً بالغطاء، خشية أن يصيبه برد مكيّفات الهواء في البيت فيمرض. وسائق سيّارة الإسعاف، ورجل الشرطة، يساعدان عمّي، أحدهما يمسك بالأطراف المتهدّلة من البطّانيّة، والآخر يمنع الساقين من أن تعلقا بإطار الباب، وعمّي لا يبدو مرتاحاً لحركاتهما المضطربة حوله. وأنا أحاول، في هذه الأثناء، أن ألمس اليد النافرة من تحت الغطاء، إلاّ أنّ عمّي ينهرني لأبتعد عن طريقه. وأمّي تتبعنا، بعد ذلك، لتسمعنا نهنهة بكائها، ونحن نخرج بأبي من الدّار. وأراهم يريحون جثمانه في باطن سيّارة الإسعاف، ويصعد رجل الشرطة بجوار السائق، وتتحرك السيّارة، أضواؤها مشتعلة، إذ يحلّ الغروب، ويكثر المتنزّهون على كورنيش البحيرة، والسيارة تتابع طريقها، على الشاطئ، لا تثير اهتمام أحد. ثمّ



تنعطف في الدرب المؤدّي إلى الصحراء، والذي يقودها إلى المدينة وهكذا يؤخذ منّي أبي، ولا أعود أراه، إلاّ في أحلامي وكوابيسي ويظلّ عمّي واقفاً في مكانه، بلا حراك، دقائق طويلة، وجهه ناحية الدرب، الذي اختفت فيه سيّارة الإسعاف. وعندما يتحرّك في النهاية، لا يعود إلى البيت، مثلما كنت أتوقّع (يعذّبني إحساس بالكرب لاضطراري إلى العيش معه تحت سقف واحد) إنّما يمضي ماشياً صوب البحيرة، ليقف على صخور الشاطئ، في المكان الذي اعتاد أبي أن يجلس فيه كلّ صباح، وأنا بجواره. ويظلّ عمّي واقفاً هناك، على جرف البحيرة، فترة طويلة، وأنا أتأمّله من بعيد، تحيط به عتمة المساء، وجهه إلى الماء، الذي تخترقه، بالقرب من الشاطئ، سهام صفر لا تهتزّ، تعكسها المصابيح المضاءة في واجهة الفندق، وعلى امتداد الكورنيش، وواجهات البيوت السياحيّة القريبة من البحيرة. (ترى ما الذي يجعله يقف هناك وحده، في هذه الساعة، يحدّق إلى الماء في شرود!؟).

أستدير، وأعود إلى البيت، فأجده مظلماً (أمّي أطفأت الأضواء، وجلست في كرسيّ الشهود، ساكنة، منكّسة الرأس). تحيّرني جلستها الغريبة تلك، ويصدمني البيت المظلم، بفراغه الموحش. ولا تتحرّك أمي، عند دخولي، بل تظلّ على جلستها الساكنة، منطوية على نفسها، مطرقة برأسها، كأنّها في حضرة محقّق رهيب - غير بشريّ - لا حدود لسطوته وسلطانه. أتركها في مكانها، لا أكلّمها ولا أدنو منها. وألتقط عصا أبي التي عافها ضابط الشرطة، مسندة إلى ظهر الكرسيّ، وأدخل غرفتي، أوصد بابها، ثمّ أحتضن أبي، وأنتحب.



-٨-

عندما يخرجون جثّة عمّي من البيت (بعد إحدى عشرة سنة من تاريخ هذا اليوم) وأمّي مخبولة، تتبع الرّجال الذين يحملونها، حافية القدمين، تولول - مثل قرويّة مفجوعة - بوجهها الغارق بالدموع والذي شوّهت ملامحه الجميلة تقلّصات الحزن، ويخلو البيت من الذين جاؤوا يواسونها بإخلاص، والّذين دخلوا بدافع الفضول (أمّي جمعت علينا النّاس بصراخها الهستيريّ). تجابهني زوجتي بنظراتها القلقة، المتسائلة.

- لخاطر اللّه، قل لي، ما الّذي يجري!؟

الفزع يلوح في عينيها، تريد منّي إيضاحاً لسلوك أمّي، يبدو لها غريباً إلى أقصى حدّ، ومحيّراً. وطفلنا الصغير (دخل توّاً عامه الثالث) يرفع رأسه ينظر إلينا، بوجهه المذهول من مرأى جدّته النادبة، وعويلها اليائس، ومن الجلبة المثارة في البيت، والتي زلزلت عالمه الطفوليّ.

- أريد أن أعرف ما الّذي فعلته انت، حتى تثور أمك في وجهك بهذا الشكل، كأنّها توشك أن تقتلك!؟ وماذا تعني بصراخها



الهستيريّ «أتدري ماذا فعلت يا مجنون»!؟ أنا لا أفهم!

– في الحقيقة، أنا مثلك مندهش. يبدو أنّ غرق عمّي في البحيرة أفقدها عقلها!

ولكنّ زوجتي تبدو غير مقتنعة، عيناها المرتابتان، المضطربتان، تتفحّصان وجهي، تحاولان أن تغوصا في الأعماق المجهولة، والمعتمة، من نفسي، علّهما تكتشفان ما يساعدها على فهم سرّ هذا اللّغز المحيّر في انشطار العلاقة بشكل نهائيّ بيني وبين أمّي. وابننا الصغير، أحسّ بأصابعه الدقيقة، الدافئة، تتعلّق بيدي، يرفع، في هذه الأثناء، وجهه الحائر إلينا، إذ يحسّ، برغم صِغَر سنّه، أنّ أمّه، بوجهها المرعوب، وأباه، بوجهه المغلق، يتنازعان في ما بينهما شيئاً غير مرئيّ، يختفي وراء الكلمات، سرّاً من الأسرار، غامضاً ورهيباً، وهو ينقّل نظراته المشدوهة بين الوجهين الكبيرين المشدودين، والمعلّقين فوق رأسه، يهيمنان بمشاغلهما وهمومهما على عالمه الهشّ (فما هذا الّذي يجري في عالم الكبار!؟ لعلّه يتساءل في حيرة، بينه وبين نفسه، ولعلّ طيف هذا المشهد يترسّب، ويحفر له الآن مكاناً راسخاً في لاوعيه – وهو في السنوات المبكرة من طفولته – سوف يبقى مطموراً ليظهر بعد عشرين، أو ربّما خمسين سنة، في أحلامه وكوابيسه، بأشكال مخيفة تجعله يصارع مستميتاً من أجل الخلاص). اداعب رأس ابني بحنان، وابتسم في وجهه، من أجل أن ابعث في نفسه الشعور بالطمأنينة، وابعد هذه الهواجس المزعجة عن ذهني انا ايضاً. وزوجتي، التي تنسى تماماً، في حمّى حيرتها واضطرابها، ضرورة مراعاة مشاعر الصغير، حتى لا تتأثّر حياته في المستقبل، تريد أن تكون على علم بتفاصيل ما يجري حولها



مـاذا؟ وكـيف؟ ولماذا؟ ومـتى؟ وأين؟ إلى آخـر هـذه الأسـئلة المألـوفـة، التي قد تسـتثير أجوبة غير مـألوفة تماماً. (ولكن من هو هذا الإنسان الذي بوسـعـه أن يعرف ما يجـري حـقّاً من حـوله، من أمـور دنيويّة، وغير دنيويّة!؟) وهي تريد أن تعرفها منّي الآن، في هذه اللحظة، قبل أن تعود أمّي إلى البيت، بعد توديع الجنازة، إذ ما كان يخطر ببال زوجـتـي، على الإطلاق، أنّ هذه السـفـرة إلى البـحـيـرة، من أجل الـترويح عن النفس (والتي اقـترحـتـهـا أنا، ووافق عـمّي عليـهـا في الحـال، وهو غاية في السـعادة (ما كان يعرف المصير الذي ينتظره بالطبع) والتي فـرحت بهـا أمّي فـرح طفل بهـديّة ظلّ يتـرقّـبـهـا زمناً طويلاً، إذ وجدت في اقتراحي أن نسافر إلى البحيرة معاً، ونقيم في بيت واحد، مثل أيّة عائلة متـآلفة، لا يعرف افرادها الضـغائن، دليل تقارب بيني وبين عمّي - وهو حلم حياتها، بعد سنوات من العداء، من جانبي، برغم تسامح عمّي، ومحاولاته غير المجدية للتودّد إليّ) سـوف تنتـهـي هذه النهـاية المأسـاويّة، وتخلّف وراءها ظنوناً، وتصوّرات، واتّهامات غريبة، وجرحاً عميقاً نازفاً، لن يلتئم قطّ.

- بابا!

يجرّني ولدي من يدي، يشـعـرني بوجوده بيننـا، فـانشـغالنا عنه يجعله يشـعر بالضـجر، إذ يحسّ بنفسه مـهملاً، خـارج عالمنا المعبّأ بأمـور لا يدركـهـا. فـأنحني عليه، وأحمله على ذراعي، وأضـمّـه إلى صدري بحنان.

- ما رأيكِ لو تركناه بعض الوقت عند النّاس السـاكنين بجوارنا، حتى تهدأ الأمور؟ لا أظنّهم يمانعون.

أحاول أن أصرف تفكيرها عمّا فعلته أمّي معي، غير أنّها تدرك

قصدي، فتقول:

- كان ينبغي أن تفعل هذا، عندما كان البيت يضجّ بعويل جدّته، وصراخها، الذي أرعبه كثيراً، وجعله يبكي. أمّا الآن فقد انتهى كل شيء. ولا أدري كيف ستتصرّف أمك، بعد ذلك المشهد الفظيع، الذي ما أزال لا أفهم دوافعه!

- ولا أنا أيضاً.

ترنو إلى وجهي بارتياب، وتنتزع الطفل من بين ذراعيّ، وتمضي لتنزوي به في غرفتنا، وتوصد على نفسها الباب، احتجاجاً على إخفائي لأسراري عنها. (هي تظنّ أنّ هناك سرّاً أكتمه عنها). ولكن ماذا بوسعي أن أقول لها!؟ أأقول لها إنّ أمّي تظن أنّني أنا الذي أغرقت عمّي!؟ (في الحقيقة أمّي على يقين تقريباً، ولا أدري من أين جاءها هذا اليقين، فهي لم تكن معنا!).



-٩-

اسمع طرقاً متردِّداً خفيضاً - نقرات إصبع - على خشب الباب، ثم ينفتح برفق، وتدخل أمّي بهدوء - كأنّها تدخل على شخصٍ مريض، أو نائم - فتراني أجلس على سريري وسط عتمة الغرفة (تعمّدت ترك الضوء مطفأً) ساكناً، متهدِّل الكتفين، الدموع ماتزال تبلِّل وجهي، فقد بكيت كثيراً، وعصا أبي تتمدّد نائمة في حضني. فتهزّ رأسها، في مزيج من الحيرة والإشفاق والحزن. ثم تمدّ يدها صوب مفتاح النور.

- لا، لا أريد ضوءاً!

تباغتها صيحتي المستنكرة، فتترك ذراعها تسقط بجوارها في استسلام.

- لا تعذِّب نفسك يا ولدي، فهو الذي اختار هذه النهاية! كان حزيناً على الدوام، ويتألّم كثيراً بسبب إصابته!

لا أقول لها شيئاً، ولا أنظر إلى وجهها. أظلّ على جلستي الساكنة، أصابع يديّ الاثنتين تحيط باعتزاز بجسد العصا البارد.



صمتي العنيد، في مواجهة محاولاتها اختراق جدار الريبة والشك الذي انتصب عالياً بيني وبينها، بعد اغتيال أبي، والانطباع البائس، تراه على وجهي، وفي سلوكي عموماً، يفقدانها توازنها.

- ماذا لو قلت لك..!

غير أنّها تتوقّف عن الكلام في الحال، كأنّ كفّاً غير مرئيّة اطبقت على فمها، وحبست الكلمات في حنجرتها. أراها تستدير، وتغادر الغرفة بِخُطًى متعجّلة، كأنّها تهرب من شيء يطاردها. تنسى الباب مشرّعاً، فأنزل عن سريري، العصا في يدي، وأصفق الباب وراءها بقوّة، حتى تسمع صوت احتجاجي، وكراهيتي، فأنا لا أريد ان أراها، لا أريد أن أرى أحداً، وعلى الأخصّ ذلك القاتل الوضيع، عمّي!



-١٠-

منذ بعض الوقت، والذين يعـودون من زيارة البـحـيـرة، من الأصـدقـاء والمعـارف، يقـولون لي إنّهم يشـاهدون قـبّعـة أبي القشّ ماتزال تطفو على سطح الماء، على مقربة من الشاطئ. أبعد كلّ هذه السنين تبقى قبّعة، مصنوعة من أعواد القشّ، تطفو فوق ماء البحيرة المالح، سليـمـة لم يصـبـهـا البلى، برغم الزمن والشـمـس والماء والأنواء!؟ من يصدّق كلاماً مثل هذا!؟ «اذهب وانظر بنفسك» يقولون لي. اراها فكرة صائبة. لعلّ الوقت حان أخيراً، للذهاب إلى البحيرة مـرّة ثانية؛ ولا بدّ أن ترافقنا أمّي وزوجـهـا، في هذه الرّحلة. ولكن، قبل كلّ شيء، يتوجّب عليّ أن أمـهّد - بشكل لا يثير الريبة - لإنهاء عدائي الصريح لعمّي. (ظلّت أمّي تصرّ على الإتيان به معها، كلّما جاءت لزيارتنا، بأمل أن تصلح ما بيني وبينه، حتّى كان اليوم الذي أخذتُه فيه أنا جانباً، وقلت له، وجهاً لوجه، أن يكفّ عن دخول بيتنا مرّة أخرى. آلمته كلماتي بالطبع، تقلّصت عضلات وجهه، وبدا لي كـأنّه يوشك أن يبكي. وضع يده على كتفي فنفضتـهـا، فـتأمّلني مجروحاً.

- لماذا تكرهني!؟

- ألا تعرف!؟

وأدرت له ظهري، يداخلني شعور بالارتياح لأنّني جرحته. وهكذا فإنّ أمّي تأتي وحدها لزيارتنا، هذه الأيّام، على الخصوص بعد ان أصبح لها حفيد تجيء لرؤيته، وتجلسان، هي وزوجتي، الساعات الطويلة، تتحدّثان عن شهيّة الطفل، ومواعيد نومه، والكلمات الأولى التي راح ينطق بها، وما إلى ذلك من أمور يطيب للأمّهات والجدّات التحدّث فيها. أمّا أنا فأحاديثي مع أمّي تظلّ مقتضبة، ينقصها دفء الألفة والمودّة - مثل أيّ حديث عابر بين غريبين، أو بين صديقين أصاب العلاقة بينهما شرخ كبير. ولا يأتي، في مثل هذه الأحاديث السريعة مع أمّي، أيّ سؤال من جانبي عن عمّي وأحواله، كأنّه لا وجود له في حياتنا، في حين تصرّ هي على حشر اسمه في كلّ عبارة تقولها تقريباً، وتحاول أن تقنعني بأنّه يحبّني (فوق كلّ إنسان، برغم موقفك الشاذّ منه، والقائم على تصوّرات وظنون أثبتت الوقائع بطلانها). وفي آخر محاولة لها من هذا القبيل أتظاهر أمامها بأنّني اقتنعت أخيراً بما تقول.

- لماذا لا تأتين به.. تتناولان طعام الغداء عندنا أحد الأيّام؟

- صحيح!؟

يشرق وجهها.

- طبعاً.

غير انّ وميض الفرح في عينيها يخبو، في اللحظة التالية، ويلحّ الارتياب في نظراتها، وهي ترنو إلى وجهي بإمعان.

– قل لي مـا الذي تخطّط له يا ولدي!؟ أنت قلت لي مـراراً إنك لا تحتمل رؤية وجهه، فكيف..!؟

– واللّه أنا احترت معك، يا امّي! ألا تريدين أنت إنهاء القطيعة!؟

– بالتأكيد، فموقفك منه يعذّبني.. يقتلني. ولكن..!

– طيّب، إن كنت غير مرتاحة، لأيّ سبب، فانسي ما قلت.

– لا لا، نجيء.. طبعاً نجيء. غداً إذا احببت.

إلاّ انّ شـيـئاً من الشكّ في دوافـعي يظلّ يلوح في الأعـمـاق من عينيـهـا، وهي ترنو إلى وجـهي المهـادن (فـثمّة هاجس ينغّص عليـهـا فرحتـهـا. لعلّـهـا تقول لنفسـهـا إنّ المشـاعـر لا تتبدّل بـين يوم وليلة). ومع ذلك تخشى ضياع الفرصة، فتبتسم وتلمس ذراعي بامتنان.

– شكراً يا ولدي، شكراً. هكذا احسن، صدّقني.

وتبـدأ بـعـد ذلك الزيارات، والمجـامـلات، والدعـوات المتـبـادلة. وأشـاركـه جلسـات شـرابه، عندمـا نذهب، أنا وزوجـتـي، ومـعـنا الصـغـير، لزيارتـهـمـا. ويبدو عمّي – الذي يتلهّف على صـداقتي، لا أدري لماذا – سعيداً، كثير المرح (وفي الوقت نفسه حذراً في سلوكه مع زوجـتي. لا بدّ انّ امّي نبّهته الاّ يتبسّـط مـعـهـا في الكلام، لكيـلا يستفزّ مشـاعري. لذلك اراه يتحـاشى المزاح معها، كمـا كان يفعل، قـبل أن أطرده من بيـتنا). ويضـع يده على كـتـفي بمودّة (انا اكـره النّاس الذي يصـرّون على ان يلمسـوك، وهـم يتـحـدّثون إليك، كـأنّ كلماتهم لا تصل إلاّ عن طريق التماسّ الجسديّ) وهو يتـحدّث معي، الشيب يخالط شعر رأسه (مايزال يبدو وسيماً، وإن تغضّنت وجنتاه قليلاً، وانتفخت الجيوب تحت عينيه، اللّتين ما عاد يغطّيهما بنظّارات



سود، منذ رحيل أبي). ويضايقني أن أراه يطيل النظر إلى وجهي (أحياناً من فوق حافة كأس الشراب، يرفعه إلى شفتيه، ويحدّق إلى وجهي ساهماً) بعينين تشبهان، إلى حدّ كبير، عيني كلب يطمح إلى رضا سيّده. (هذا ما يبدو لي أنا، على أيّة حال، برغم ما أسمعه عن سطوته، على الرِّجال والنساء، الّذين يعملون في الدائرة، تحت إمرته). وأنا أكتم مشاعري وأبتسم في وجهه، بل وأضحك للنكات يرويها لتسليتنا. وزوجتي تبدو راضية عن تحسّن العلاقة بيننا. (هي ليست لديها أيّة فكرة عن أسباب نقمتي على عمّي). وأمّي ترنو إلينا مبتهجة، إذ ترانا نشرب معاً، ونتحدّث ونضحك (أبي غدا، بالنسبة إليها، تاريخاً منسيّاً، منذ زمان بعيد!) وتصفو نفسها، وتزايلها بقايا الشكوك في دوافعي.

أتأمّل وجهها المستبشر.

– هل أنت سعيدة الآن، يا أمّي؟

– لا تقدر أن تتصوّر كم أنا سعيدة، إذ أراكما هكذا معاً، فأنتما أعزّ شخصين عندي.

– طيّب، ما رأيكم في سفرة نقوم بها، نحن جميعاً، إلى البحيرة، نقضي هناك بعض الوقت؟

وأرنو إلى وجه عمّي الجالس باسترخاء، سعيداً هو الآخر، فتروق له الفكرة. وتبتهج المرأتان، وتبدآن بالتخطيط للرحلة المنتظرة، في حماسة، وفرح.



-١١-

تشاء المصادفات العجيبة، التي تتحكّم في مصائر البشر، في عشوائيّة (مقصودة ربّما، فمن يدري أيّة قوّة خفيّة تلعب لعبتها وراء ظهورنا!) ان يكون البيت السياحيّ الذي استأجرناه على شاطئ البحيرة، هو البيت نفسه، الذي عشنا فيه - باستثناء زوجتي طبعاً - عندما كان أبي مايزال يجلس على الشاطئ، صباح كلّ يوم، يجري تجاربه الغريبة على الأسماك، وأنا أجلس بجواره، قبل موته، الذي ماتزال أسبابه تحفر في روحي.

- بربكم، ألم تجدوا غير هذا البيت!؟

يتجهّم وجه امّي، حين تكتشف ذلك.

- وما العيب فيه يا امرأة!؟

- أنا أتشاءم منه! فهناك بيوت عتباتها منحوسة، لا يجلب السكن فيها غير التعاسة، والعذاب!

- دعينا من هذه الخزعبلات، وهيّا بنا ندخل!

اتأمّلهما صامتاً، لا اتدخّل، والاثنان - عمّي وامّي - يتناقشان،



قبل الدخول إلى البيت، وامّي متردّدة، تتلفّت براسها، ترنو إلى عشرات الدور، بيضاء في الشمس، على الجانبين، بأبوابها الموصدة، وستائرها المسدلة على النوافذ.

- تركتم كلّ هذه البيوت.. ولم تجدوا..!؟

في هذه الأثناء تبقى حقائبنا، وامتعتنا التي انزلناها من السيّارة، تنتظر على الأرض، وزوجتي تحمل طفلها - الذي هدهدته حركة السيّارة على الطريق فغفا في حضنها - تنظر إلى امّي حائرة، لا تفهم سبب اعتراضها على السكن المؤقّت في هذا البيت، الذي لا يختلف، في نظرها هي، عن أيّ بيت آخر تراه في الجوار.

- صحيح يا عمّتي، ما الفرق بين هذا البيت وغيره من البيوت!؟ كلّها من الطراز نفسه!

هذا السؤال البريء، تطرحه زوجتي (هي تجهل ما حدث هنا في الماضي، الذي يظلّ يلاحقنا مثل ظلّنا القاتم) يحرج أمّي، ويجعلها ترتبك، لا تدري كيف تفسّر لزوجتي السبب في اعتراضها على السكن في هذه الدار بالذات، فتنظر إلى عمّي بحنق.

- طيّب، مادمتم كلّكم..!

ونفتح الباب.

ويرجّني مشهد البيت في الداخل، تدهمني الجدران والنوافذ، والممرّ المعتم قليلاً بين غرف النوم، والأثاث القليل في الصالة (جهاز التلفزيون ابدلوه بواحد اصغر حجماً، إلاّ انّ الجهاز بقي في المكان نفسه، في الركن، تحت جهاز التكييف المثبت في الجدار، يستقرّ على قاعدته المصنوعة من الزجاج، وأنابيب الألمنيوم الذي انطفا



بريقها قليلاً، بمرور الزمن. البساط على الأرض بقي البساط نفسه - يا سبحان اللّه! كلّ هذه السنين! - يبدو أكثر قدماً بالطبع. والمقاعد هي ذاتها، التي رأيناها وجلسنا عليها في السابق. أبدلوا أغطيتها فقط ؛ كسوها بقماش جديد. وتهيج في داخلي الذكريات - الذكرى تزاحم الذكرى - أسراب من الدبابير السود المتوحّشة تلسعني بإبرها المسمومة، في المواضع الأشدّ توجُّعاً من روحي. أقف مشلولاً، أتأمّل كلّ شيء في البيت في شرود، ناسياً حقيبتنا الثقيلة معلّقة في يدي، ناسياً زوجتي الّتي دخلت ورائي تحمل طفلنا النائم على ذراعها، ساهياً عن وقع خطى أمّي وعمّي، ولغطهما، يدخلان ويخرجان، يعملان على حمل بقيّة الأمتعة إلى داخل البيت، في حين تنثال على ذهني أنا الصور والمشاهد، والأحداث القديمة، وفي أذني تتردّد الأصوات، واضحة النبرة، كأنّني أسمعها اللحظة، آتية من وراء السنين، على الأخصّ صورة أبي وصوته، ومشهد جثّته المسجّاة على البساط، في غرفة النوم. (إنّني أسائل نفسي حائراً، أحياناً، ترى لماذا يسعى الواحد منّا إلى تعذيب نفسه بنفسه، كأنّه يستطيب الألم!؟ إذ كان بوسعي بالطبع أن أعود إلى المشرفين على أمور السكن على البحيرة، وأطلب منهم تخصيص بيت آخر لنا - مثلما أرادت أمّي - إلاّ أنّني لم أفعل، وتركت المصادفة تواصل لعبتها المؤذية، وفي مكان معتم من أعماقي يختلج إحساس خفيّ بالارتياح. ولعلّ هذا الارتياح ناشئ أيضاً عن رغبتي في أن تجعل إقامتنا في هذا البيت بالذّات، عمّي وأمّي يتذكران ما حدث، ويتعذّبان. إلاّ أنّني أكتشف بخيبةٍ ، في ما بعد، أنّني كنت واهماً جداً (بشأن مشاعر عمّي، بشكل خاصّ، فلولا الاعتراض



الذي أبدته أمّي، قبل الدخول إلى البيت، لما اكتشف هو أنّ البيت الذي خصّصته لنا مصلحة السياحة، هو البيت ذاته الذي أقمنا فيه أيّاماً عديدة، في زيارتنا القديمة إلى البحيرة).

وتمسّني زوجـتي، التي ظلّت تنتظر بجـواري حـائرة، ونافدة الصبر، بكوعها في خاصرتي (يداها مشغولتان بحمل الصغير).

– تحرّك! لماذا تقف هكذا، كأنك رأيت عفريتاً! أيّة غرفة لنا؟ أنا تعبت. أريد أن أضع الطفل على الفراش!

فأفيق من شرودي، والتفت إلى أمّي، التي فرغت هي وزوجها، من إدخال الأمتعة إلى البيت، ووقفت تنتظر، هي أيضاً.

– أنتما خذا الغرفة التي كنتِ تنامين فيها مع أبي، عندما..

اقتراحي هذا، الذي أجعله يبدو عفوياً، يباغتها، فتجفل.

– لالا، أنت وزوجتك خذا هذه الغرفة. نحن نأخذ الغرفة المواجهة للحمّام، في نهاية الممرّ.

وتلتفت إلى عمّي.

– يا الله!

وتحمل بعض الأمتعة، وتسبقه إلى داخل الممرّ، بخطى سريعة، لا تريد أن تسمع أيّ كلام آخر؛ ويحمل هو حقيبتهما، وما تبقّى من أمتعتهما، ويتبعها. (هل أردت أن أجرحها باقتراحي!؟ لست أدري تماماً، فمشاعري – نحوها بشكل خاصّ – متضاربة، وغير مستقرّة). وأتحرّك أنا صوب الغرفة التي سكنتها صبيّاً (إذ إنّ النوم في الحجرة التي نام فيها أبي سوف يكون مرهقاً لأعصابي



المشدودة). وتتبعني زوجتي، بادية التعب، فأساعدها على وضع الصغير، الذي أخذ يفيق ويتململ، على الفراش، وأسمع لغطاً في الغرفة المجاورة – عمّي يقول شيئاً، وأمّي تبدو كأنّها ترفض، أو تتمنّع – وحين أخرج إلى الممرّ، لأعرف سرّ تلك الجلبة، ألمحه يجرّ أمّي من يدها إلى الحمّام، وهي تمضي معه مذعنة، تحمل ثيابهما ومناشفهما على ذراعها الأخرى (هكذا، بكلّ وقاحة، دون أن يراعيا مشاعري، وبلا أيّ شعور بالحرج من وجود زوجتي في البيت! يبدو أنّهما اعتادا ان يغتسلا معاً، منذ زواجهما الملعون. ولا اتذكّر أنّني شاهدت أمّي تغتسل مع أبي في وقت واحد، مع انّ به حاجة إلى من يعينه، بسبب عجزه، في سنواته الأخيرة). وأنتهز فرصة غيابهما وراء جدران الحمّام، وانشغال زوجتي بتغيير ملابس الطفل، وأغادر البيت. (خروجي من الدار يخفّف قليلاً من شعوري بالحنق والضيق).

وهذه هي البحيرة، مترامية الأطراف، وجهها يشعّ في الشمس، وفوق شواطئها تحوم أسراب النوارس، تطلق صرخاتها اللجوجة في صمت ما بعد الظهيرة (مررنا على البحيرة بالسيّارة، ونحن ندخل إلى منطقة السكن، إلاّ أنّها تعرض نفسها الآن بكامل اتّساعها، أمام عينيّ المتأمّلتين، المترقّبتين). وذاك هو مبنى الفندق، بجدرانه العالية، وصفوف نوافذه الضيّقة، ينتصب كتلة ضخمة من الحديد والزجاج والإِسمنت، بين البيوت الصغيرة، المنتشرة حوله، والشاطئ الرمليّ الفسيح، بلونه الفاتح الصفرة – يكاد يكون أبيض لانثيال أشعّة الشمس، تعكسها حبّات الرمل الصغيرة – والخالي، تقريباً، من السابحين والسابحات، في مثل هذه الساعة من النهار.

رؤوس سود قليلة تطفو فوق سطح الماء، على مقربة من الشاطئ ومجموعة البيوت البيض، اعتدنا رؤيتها، انا وابي، تمتدّ على الجانب الآخر من البحيرة. كلّ شيء باق في مكانه، لم يتغيّر (في الظاهر على الأقلّ). ولكن أين ذهب يا ترى ذلك البهاء!؟ أين ذهب الجمال الذي بهرني بروعته، أوّل مرّة زرت فيها هذا المكان، وأنا صبيّ، أرنو إلى الدنيا بعين متفائلة!؟ اللّه كم يتغيّر الخارج حين يتغيّر الداخل! كم يتغيّر حين يصيب العطب دواخلنا! (هذه الخواطر تمرّ في راسي، وأنا أحثّ الخطى، في الشمس، صوب البحيرة). وينتابني ذهول، وأنا بعد على مسافة نحو خمسين متراً من الشاطئ، فهناك، على بعد قليل من الجرف، فوق سطح الماء الفاتح الخضرة، اللامع في الشمس، تطفو قبّعة ابي، باقيةً، برغم السنين، في مكانها تقريباً، المكان الذي انتشلوا فيه جثّة أبي الباردة. اقف في مكاني مشدوهاً، لا اكاد أصدّق ما ارى (إذ كان، قبل ذلك، يداخلني شك في بقاء القبّعة، في مكانها سليمة، حتّى هذا اليوم). أمشي سريع الخطى، ثم اعدو إلى الشاطئ، عيناي لا تفارقانها خشية أن يكون ما أشهده الآن ليس سوى وهم، محض سراب من صُنع خيالي المنفلت، الذي يستلهم الشائعات والأقاويل، ثم يجعل الأشياء تبدو لي بالشكل الذي أريده. ولكن لا، فما اراه الآن ليس وهماً، على الإطلاق. (اتوقّف على صخور الشاطئ لاهثاً) فها هي القبّعة - بحافّتها الزرقاء العريضة - تلوح أمام عيني، في وضح النهار، يهزهزها برفق رفيف الماء، يحرّكه هبوب النسيم على وجه البحيرة. ويختلج قلبي فرحاً، كأنّني ارى وجه ابي - لا قبّعته فحسب - واسمعه يكلّمني، واراه يومئ إليّ، كأنّه يذكّرني بعهد قطعته على نفسي.



ونظلّ نتواصل بصمت، وأنا لا أكترث لحرارة الشمس تصلي فروة رأسي، ولحم رقبتي (لا، لست مختلّ العقل، إذ أفكّر على هذا النحو، وأنا أتأمّل قبّعة أبي الطافية على الماء، فمشاعري لا علاقة لها بالمنطق والعقل، إنّما بالإيمان النابع من وجيب القلب). ولا أدري مدى الوقت الذي قضيته واقفاً أتأمّل قبّعة أبي، وأتواصل معه. وأخيراً أفيق إلى نفسي (أظنّ أنّ صوتاً لا أعرف طبيعته، ولا مصدره، أخلّ، بشكل فظّ، بالسكون الوديع حولي، وجعلني أخرج من حالة الاستغراق والتجلّي، التي كنت فيها، وأعود إلى العالم النابض من حولي، مثلما يعود نائم إلى اليقظة، أحياناً، وهو يجهل طبيعة الصوت، الذي دفع بالنوم بعيداً عنه). وأتذكّرهم ينتظرونني في البيت، لا يعرفون أين ذهبت - على الأخصّ زوجتي - لم أخبرها بعزمي على الخروج. وأنتزع نفسي من المكان، وأعود إلى البيت، أنظر أمامي في شرود. ترى كيف ستكون ردود أفعال عمّي وأمّي، وهما يباغتان بمشهد قبّعة أبي، تطفو فوق سطح الماء، بعد كلّ هذا الزمن!؟ ربما تمثّلت لهما شبحاً، من الماضي، طلع عليهما الآن، يستردّ ديونه، ويصفّي الحساب!

وأجيب عن أسئلتهم المندهشة، عن سرّ غيابي، بأنّني أحببت أن أتمشّى على الشاطئ حتّى يفرغ الحمّام.

- في هذه الساعة من النهار!؟ والشمس تشوي كلّ شيء!

أتجاهل كلمات زوجتي المستنكرة، محتفظاً بوجه محايد، أحاول ألاّ يلوح على ملامحي أيّ تعبير يفضح الانفعال المحتدم في داخلي، بعد مشهد البحيرة الّذي رجّني (فالإنسان الذي يعود إليهم الآن، محتقن الوجه - سوف يظنون احتقان وجهي من أثر لهيب الشمس



على الشاطئ – هو غير الإنسان الذي غادر البيت، قبل فترة [illegible]، طويلة) فكلّ شيء ينبغي أن يظلّ طبيعيّاً، لا يثير الظنون. كلّ شيء يتابع مساره الاعتياديّ، حتّى اللحظة المنتظرة، منذ زمن طويل.

بعد أن نغسل جميعاً عن أجسادنا غبار الطريق، نجلس في صفاء عائليّ نادر، نتناول طعام الغداء الذي أعدّته لنا امّي وزوجتي، وحملناه معنا من بغداد (وصلنا في نحو الثانية بعد الظهر) والوجوه من حولي مسترخية، تثرثر وتضحك (امّي تبدو مستريحة، بعد الحمّام، تحاول، أمامنا، أن تتجاهل هواجسها بشأن البيت، لكي لا تعكّر علينا جوّ السفرة المرح) وطفلنا الصغير، الذي شبع نوماً، في السيّارة، يتحرك نشطاً، في ارجاء البيت الذي يبدو غريباً عليه. والثلاثة الراشدون – عمّي وامّي وزوجتي – يأملون قضاء ايّام ممتعة، في هذا المكان. (نحن الآن في فصل الصيف، الموسم الذي يزداد فيه عدد زوّار البحيرة، ويمتلئ فيه الشاطئ الرملي الفسيح، أمام بناية الفندق، بالسابحين والسابحات، وبالصراخ واللغط المرح (عمّي يفكّر، على الأرجح، في سهرات شرب مسلّيَة، في مشرب الفندق، مع أناس ظرفاء يلتقيهم هناك، فليس أسهل، ولا أسرع، من الصداقات التي تتوطّد، بين السكارى، في الحانات، وبارات الفنادق، وهو الخبير في تنمية علاقات المودّة مع الرِّجال والنِّساء – على الأخصّ النساء – في سرعة مذهلة. وسوف أشاركه، بالطبع، جلسات شرابه الليليّة، هذه المرّة، فما عدت ذلك الصبيّ الصغير، الذي يكاد لا يفارق اباه المعوق، في زيارتنا المأساوية الأولى، قبل سنين طويلة). وبعد أن نستريح نحو ساعتين، ننعم بالهواء المنبعث من أجهزة التكييف، ونتبادل الأحاديث (في الحقيقة هم يتكلّمون،



وأنا أنظر إليهم في شرود، تاركاً على وجهي ابتسامة لا معنى لها، توحي إليهم بأنّني لست بِمَنْأًى عمّا يدور بينهم من كلام) وننتظر، في هذه الأثناء، أن تنتشر الظلال على الشاطئ، وتنكسر حِدّة حرارة الهواء. ثمّ نغادر البيت لنتأمّل مشهد البحيرة، في الدقائق التي تسبق غروب الشمس، نحن الأربعة، والطفل معنا، يتعلّق بيد جدّته. وبسبب خطوات الصغير القصيرة، والمتعثّرة، تتخلّف أمي وراءنا، وعمّي يماشيها. لذلك أمشي أنا، زوجتي تتعلّق بذراعي، أمامهما ببطء، من أجل ألاّ تطول المسافة بيني وبينهما، إذ لا أريد أن يفوتني شيء ممّا يقولانه، وهما يعودان إلى هذا المكان (ولكن لماذا لا أقول يعودان إلى مسرح الجريمة!).

– تقدر تمشي؟

يحمل الهواء صوت أمّي، تخاطب الصغير. أسمعهما، بعد ذلك، يضحكان.

لعلّ الطفل قال شيئاً أضحكهما. بعد ذلك ترين عليهما لحظات طويلة من الصمت، والبحيرة ماتزال بعيدة، تقترب ببطء قاتل، وأنا أناشدهما، في سرّي، أن يتكلّما، أن يبوحا بما يخفيان.

– هل تتذكّر!؟

يحمل الهواء صوت أمّي تتكلّم أخيراً، فأصغي بكلّ جوارحي.

– أتذكّر ماذا!؟

أتباطأ أكثر في سيري، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يثير ريبتهما، في دوافعي فيصمتان عن الكلام. غير أنّ أمّي لا تجيب عن سؤاله الحائر؛ تبدو متردّدة، تفكّر.



- ماذا تريدينني أن أتذكّر!؟

يصلني صوته خفيضاً، إلاّ انّه واضح النبرات. (يبدو لي أنّ الواحد منّا كثيراً ما يقع في الوهم بأن ليس بوسع الآخرين أن يسمعوا ما يقول، ما إن تبعد المسافة قليلاً بينه وبينهم. وهذا الافتراض الخاطئ يخدمني الآن، فعمّي وأمّي يتكلّمان باطمئنان، فالطفل بجوارهما لا يعي شيئاً). غير أنّ أمّي - لا ادري لماذا - تبدو متردّدة في أن تبوح بما يدور في ذهنها هذه اللحظة، برغم إلحاح عمّي عليها.

والبحيرة تقترب!

هيا يا أمّي! أجيبي عن سؤاله! ماذا تريدينه أن يتذكّر!؟

- لا شيء.. لا شيء.

يجيئني صوتها متهرّباً من الردّ.

أتراها تشكّ في انّني اسمع ما يقولان!؟ لا اظنّ.

- أردت أن أقول..

اسمعها تتكلّم.

- .. إنّني اشعر بسعادة كبيرة، إذ أرى العلاقة بينه وبينك أصبحت..

- كان ينبغي أن تكون هكذا من البداية، لولا أنك..!

- أرجوك لا تفتح هذا الموضوع مرّة أخرى. ارجوك، ربّما سمعنا!

- ما أجمل مشهد البحيرة وقت الغروب! ما كنت أتصوّر..!



إشششش!

اتجاهل نظرات زوجتي الحائرة إلى وجهي.

- ما بك!؟ أنا قلت فقط إن..!

- أرجوك، اصمتي الآن!

تسقط زوجتي يدها عن ذراعي، وتصمت مستاءة، ويفوتني، في هذه الأثناء، جانب من حديثهما. اصيخ السمع من جديد.

- .. أفكار عجيبة غريبة كانت تدور في راسه، يبدو أنّها فارقته اخيراً. تصوّر، كان يعتقد انّ المرحوم.. لم ينتحر. إنّما..!

- انا قتلته.

- شيء من هذا القبيل.

- أعرف شعوره هذا، ولكنّه مجنون! كيف يخطر في باله أنّني يمكن أن!؟

ترنو زوجتي إلى وجهي، في عينيها نظرة استنكار، إذ تكتشف أنّني أتنصّت لما يقولان. ثم تلتفت برأسها تنظر إليهما. وأتمنّى لو لم تفعل، إذ يرين الصمت بينهما في الحال، ويمتدّ دقائق طويلة.

- ها حبيبي.. تعبت من المشي؟ دعني أحملك على ذراعي.

تنصرف أمّي باهتمامها إلى الصغير.

- دعيني أنا أحمله عنك. تعال حبّاب.

أعرف عندئذ أنهما لن يعودا للحديث في هذا الموضوع مرّة ثانية. ولكن لا بأس، فالبحيرة تقترب، وأنا أقودهما إلى الشاطئ، إلى المكان الذي انتشلوا فيه جثّة أبي، وهما يمشيان وراءنا، بخطى



أسرع قليلاً، هذه المرّة، بعد أن حملا الصغير، غافلين عن المفاجآت المروّعة التي تنتظرهما فوق سطح البحيرة، ويدنو الشاطئ، يدنو وأشعر بالخطى تتباطأ وراءنا. هل اكتشفا وجودها أخيراً!؟ واقف أنا وزوجتي على صخور الشاطئ، أترقّب وصولهما، لأشهد اثر الصعقة.

- انا سمعت كثيراً عن هذه البحيرة، ولكنّني..!

زوجتي لا تكترث لمشهد القبّعة الطافية على وجه الماء، فهي لا تعني لها شيئاً. وأسمع صوت عمّي القلق وراءنا.

- تماسكي. ماذا أصابك!؟

حين التفت أراه يمسك بذراع أمّي بيده الطليقة، وهي تقف مشلولة، وجهها شديد الشحوب.

تضطرب زوجتي، وتهرع إليها.

- عمّتي ما الّذي أصابك!؟ كنت بخير قبل قليل!

تأخذ الصغير من يد عمّي، وتضعه على الارض، لكي يتفرّغ عمّي للعناية بأمّي. اذهب إليهما انا ايضاً، عيناي تتفحّصان الانطباع على وجهه، فما يهمّني في هذه اللحظة - اكثر من ايّ شيء آخر - هو ردّ فعله هو امام حضور أبي المباغت. ولكن لا شيء! لا شيء! اقول لنفسي لعلّه لم ينتبه لها بعد. انظر إلى وجه امّي الممتقع.

- هل أنت مريضة!؟

اسألها، فتمدّ اصبعاً راجفةً صوب البحيرة.



- هناك! أليست تلك.. قبّعته!؟

ينظر إليها عمّي في حيرة. ثم ينظر إلى البحيرة.

- قبّعة من!؟

- المرحوم!

تمزّقني ضحكته المستخفّة.. تمزّقني تمزيقاً.

- ما الذي جرى لعقلك يا امرأة!؟ أيّة قبّعة هذه تبقى كلّ هذه السنين!؟ ويلتفت صوبي بوجهه الضاحك.

- قل لها، أرجوك. قل لها.

أظلّ صامتاً. بودّي لو اقتله في هذه اللحظة، غير أنّني أكتم حقدي، وزوجتي لا تفهم شيئاً ممّا يجري، ترنو قلقة إلى وجه أمّي.

- تقصدين أنّها..!؟

وعمّي يضحك، ويهزّ رأسه. في هذه الأثناء يمرّ وسط البحيرة يخت أبيض، على سطحه حشد من الرِّجال والنساء، بوجوه مبتهجة، وأذرع تلوّح، وهدير الماكنة يختلط بالصياح المرح للركّاب، على رؤوس البعض منهم قبّعات مختلفة الأشكال والألوان، واليخت يصنع وراءه في الماء ما يشبه فراشة هائلة من الزبد الأبيض، والأمواج بعضها يلاحق بعضاً، باتِّجاه الشواطئ، فتترنّح القبّعة في مكانها فوق الماء، صاعدة نازلة، تختفي أحياناً بين موجتين، ثمّ تعود للظهور من جديد، وأمّي ترفض الاقتراب من الشاطئ.

- أتعرفين قبّعة مَنْ هذه؟

- قبّعة من!؟



تحدّق امّي الى وجهه بلهفة، بأمل أن تكذّب كلماته ظنونها.

– هذه القبّعة التي ترينها، يا عزيزتي، هي قبّعة واحد من المتنزّهين، الّذين يتجولّون في البحيرة، على ظهر اليخت، كلّ يوم، أطارها الهواء عن رأسه، فسقطت في الماء.

– تعتقد!؟ تعتقد!؟

عيناها تتعلّقان بوجهه، تبحث عن أيّ شيء يقنعها بصدق روايته.

– حتماً عمّتي.. حتماً. ما يقوله عمّي صحيح.

تؤيّده زوجتي الغافلة.

– ولكنّ شكلها! ما معقول كلّ هذا الشبه!

ترنو إليه مستنجدة.

– وهل تظنّين قبّعة المرحوم فريدة من نوعها في العالم!؟

وبرغم كلماته المطمئنة فإنّ امّي ماتزال تبدو مهزوزة، غير مقتنعة تماماً، وهو غير مكترث، على الإطلاق، إذ وجد تفسيراً مريحاً للمشهد، الذي تكشّف امامه (اوحاه إليه مرور اليخت في تلك الساعة) وليس ثمّة موجب، بعد ذلك، للحيرة والتساؤل، عن سرّ وجود القبّعة فوق الماء، في هذا المكان.

ترنو إليه امّي واجمة.

– ربّما كنت محقّاً، لا ادري. مع ذلك دعوني ارجع إلى البيت.. استريح قليلاً.

– ولكنّك يا امرأة..!

– أرجوك، لا تلحّ. دعني ارجع. سوف اخرج للنزهة في ما بعد.



- أرجع أنا معك.

تتطوّع زوجتي بمرافقتها، وتترك الصغير معي، فأمسك بيده، أمنعه من الاقتراب من حافّة الجرف. لا، ليس هذا ما كنت أنتظر؛ ليس انهيار أمّي، إنّما انهياره هو ما كنت أريد، والّذي لم يحدث، فيا لخيبتي! أراه يتأمّلني مبتسماً.

- أمك افسدت علينا النزهة.

لا أقول شيئاً. أنظر إلى القبّعة ماتزال تتأرجح فوق الماء، ولكن في اهتزازات أقلّ هياجاً، مع جنوح الأمواج إلى الهدوء، شيئاً فشيئاً، بعد ابتعاد اليخت عن المكان.

- عجيب إيمان النساء بالخرافات والأوهام.. عجيب! مهما درسن وتعلّمن!

لا اقول شيئاً. ينظر إلى وجهي، لحظة طويلة؛ لعلّه يحاول ان يستشفَّ طبيعة مشاعري نحوه، في تلك اللحظة، في حين أفكّر أنا أنّ من نِعَمِ الدنيا علينا أنّ الآخرين ليس بوسعهم - مهما أطالوا التحديق إلى خلجات عيوننا، ومهما جالت نظراتهم على صفحات وجوهنا (المحايدة، والودودة في الكثير من الأحيان)- أن يكتشفوا حقيقة مشاعرنا نحوهم. إذن فهو يتأمّلني مبتسماً، لا يعرف شيئاً عن جيشان مشاعري المستفزّة.

ـ أشوف الأحسن أروح الفندق، أشرب لي قنينة، قنينتين بيرة. الا تجيء أنت؟

- بلى، اوصل ابني إلى البيت، وأرى كيف أصبحت أمّي، وأتبعك.



- لا تتأخّر.

يلوّح لي بيده، الابتسامة لا تبرح وجهه، ثمّ يستدير ويمضي اتأمّل ظهره المبتعد على الشاطئ، يخالجني شعور بأنّني انهزمت امام موت أحاسيسه، ولا مبالاته العجيبة، فهذا النّوع من النّاس بوسعك أن تؤذيه جسدياً فقط، ولكن ليس بمقدورك أن تسبّب له أيّما أذًى نفسيّ، أو روحيّ، مهما فعلت، ومهما ساعدتك الظروف، فعالمه عالم منطق مجرّد، لا عالم مشاعر وأحاسيس وأحلام. (ربّما يتساءل أحد، وماذا عن علاقاته مع النِّساء!؟ أليست قائمة على المشاعر والعواطف الرهيفة!؟ لا طبعاً، فهذه علاقات جسديّة محضة، ولا صلة لها، على الإطلاق، بالعواطف، إنّما بالغرائز - بالأحرى لها صلة بغريزة واحدة، نعرفها كلّنا - ومن اجل تهدئتها، هذه الغريزة الفظيعة، فإنّه لا يتورّع عن القيام بأيّ شيء.. ايّ شيء).

اشعر بيد الصغير تحاول ان تتملّص من بين أصابعي.

- ماذا تريد أنت!؟

يشير بإصبعه إلى حصاة على الأرض. أتناول الحصاة الباردة، واضعها في راحة يده، فيرفع ذراعه، ويرمي بها صوب البحيرة، فتحدث صوتاً صغيراً، وثقباً صغيراً في الماء، غير بعيد عن الجرف، ويبدو هو مسروراً بفعلته، يشير بإصبعه إلى حصاة أخرى، غير أنّني لا مزاج عندي، في هذه الساعة لمجاراته في عبثه. أنحني عليه، واحمله على ذراعي. يرفع يده الصغيرة يمسح بها على راسي، كأنّه يواسي يتيماً، في حين أرى عمّي يواصل طريقه، بعزم، في اتّجاه الفندق، لينتشي بكؤوس الشراب.



-١٢-

نعود من مشرب الفندق في ساعة متأخِّرة من الليل، وعمّي أثقل السكر خطاه ولسانه، يمشي مترنّحاً، يحاول أن يغنّي، وسط السكون الشامل، المهيمن على المكان، والمنبسط فوق البحيرة، مزقاً من أغنية شعبيّة قديمة، اعتاد ترديدها حين يسكر (عمّي ينسى هيبة منصبه الوظيفيّ، عندما تصعد الخمر إلى راسه) وانا في كامل وعيي تقريباً (إذ كنت اتظاهر امامه بأنّني أجاريه في الشرب، في حين كنت، في الحقيقة، آخذ جرعات صغيرة من كأسي، كلّما رفع هو يده بكأسه إلى شفتيه، وعبّ منها، عيناه تومضان نشوة) أصابعه تتشبّث بذراعي وتفلتها، ثم تتشبّث بها مرّة أخرى، كتفه ترتطم بكتفي أحياناً، وصوته المتثاقل يدندن مبتهجاً (وانا اشعر بالقرف لالتصاقه الشديد بي، وتشبّثه بذراعي). يتوقّف عمّي عن المشي، وعن الغناء، ويدير وجهه صوبي.

- اعجبتك الجلسة في البار، يا ولدي؟

- اعجبتني. وأرجوك الاّ تناديني يا ولدي، فأنا لست ابنك!

تخبو البهجة في عينيه، ويتأمّلني حزيناً.



– لا بأس.. لا بأس. أنا.. في الحقيقة.. اقولها لك من باب المودّة فقط.

يرنو بعينيه الضارعتين إلى وجهي، مايزال واقفاً في مكانه.

– تحرك. تأخّرنا عليهما في البيت! وهذا اوّل يوم لنا هنا!

– معك حق. أمك سوف..

نتابع سيرنا على شاطئ البحيرة، لغطها الخفيض، المبهم، يكاد لا يسمع في هداة اللّيل؛ نمشي في منتصف الدرب، ننتقل بين العتمة الخفيفة وأضواء المصابيح، على الأرصفة، ظلالنا تطول وتقصر، وتطول، والسكون يحيط بنا، وبناية الفندق الشاهقة الجدران تتراجع وراءنا ببطء، إلاّ انّها تتراجع مبتعدة عنّا، بنزلائها من السائحين، وصفوف البيوت، المتدّة على يميننا، نائمة، ستائرها مسدلة، ونوافذها خافتة الضوء، أو مظلمة تماماً. (في هذا المكان، وفي هذا الوقت من الليل، لن يرى او يسمع احد من النّاس شيئاً). ولا يعود عمّي إلى الغِناء، يمشي بجواري مجروحاً. وتلوح قبّعة أبي من بعيد، نقطة صغيرة تطفو على سطح البحيرة، يبدو اكثر عتمة، كلّما ابتعد عن الضفاف، حيث تسقط الأضواء سهامها الصفر في الماء. أحسّ بيد عمّي تمسك بذراعي مرّة أخرى.

"صحيح يا... صحيح... أنك كنت تعتقد...؟"

يتلكّأ في الكلام متردّداً

– كنت أعتقد ماذا..!؟

– انّني.. انّني.. اغرقت المرحوم.. في مياه البحيرة!



- دعنا من هذا الكلام. هذه حكاية قديمة أنا نسيتها.

يرنو إلى وجهي بامتنان.

- أمك تقول.. إنك اقتنعت أخيراً.. إنك كنت واهماً في ظنونك.

- أنا كنت واهماً في كثير من القضايا!

يبتسم سعيداً. يلفّ ذراعه حول رقبتي، ويقرّب وجهه المخمور من وجهي.

- دعني أقبّلك قبلة الصلح بيننا!

أتملّص من ذراعه، وأدفعه بعيداً عنّي، في شيء من العنف.

- راقب الدرب أمامك!

يرنو إلى وجهي في تسامح، ونتابع مسيرتنا على الشاطئ، وقع خطواتنا البطيئة، على اسفلت الطريق، يتردّد واضحاً، متفرّداً، في سكون اللّيل. أراه يتلفّت، بين وقت وآخر، يتأمّل وجهي الذي لا يفصح عن شيء محدّد.

- أنت شابّ طيّب، ولكنك مجنون.. بعض الشيء.

يضحك ضحكة صغيرة.

- نعم.. مجنون! مثل..

غير أنّه لا يكمل، يبدو مرتبكاً. يتوقّف، ويطرق برأسه.

- بهذه الطريقة لن نصل إلى البيت! تحرك.

يتابع سيره بجواري. نقترب من المكان الذي تطفو فيه قبّعة أبي، توضّحت معالمها الآن، برغم العتمة، التي تحيط بها من كلّ جانب.



أمشي ووجهي إلى البحيرة، عيناي لا تفارقانها، وروحي، في هذه الأثناء، تتواصل مع روح ابي. أتوقّف أخيراً عن المشي. أدنو من صخور الشاطئ. لا أحسّ بوجود عمّي – محض هباء تلاشى في الفضاء المحيط – لا يبقى في المكان سوانا، ابي وأنا، ولا احد سوانا.

– هل ستظلّ واقفاً هنا!؟ تحدّق إلى مياه البحيرة.. فترة طويلة!؟

أفيق على صوته بجواري.

أنظر إليه في ضيق.

– اذهب أنت وحدك إلى البيت. سأعود أنا في ما بعد.

– لالا.. لا يجوز. ماذا تقول زوجتك!؟ وامّك ايضاً!؟ لا.. انا انتظر.. حتى..

يبتعد عنّي خطوات. يدنو من حافّة الجرف، ويقف مترنّحاً، فوق كلّ هذا الفيض من الماء، والذي يكفي لإغراق ملايين من البشر! انتبه له، بعد قليل، يداه منشغلتان، تفتحان له أزرار بنطلونه. تصعقني فعلته النكراء. احسّ كأنّه يهوي بحذائه على وجهي.

– ماذا تريد أن تفعل!؟

تفزعه صيحتي، فتسكن أصابعه على طرفي فتحة البنطلون، عيناه مشدوهتان.

– اريد أن أتبوّل، ما لك أنت؟

غير انّني لا امهله لحظة واحدة، بل أنقضّ عليه، امسك به من ذراعه، واجرّه بفظاظة، بعيداً عن المكان، أركض به تقريباً، وهو يتعثّر



في ركضه بجواري، عيناه المندهشتان، الحائرتان، تحاولان، بين حين واخر، النظر إلى وجهي المكفهرّ.

– لماذا.. لماذا.. تجرّني هكذا!؟

أتركه في حيرته. وبعد ان أبتعد به نحو ثلاثين متراً عن المكان، الذي تطفو فيه قبّعة ابي، أتوقّف لاهثاً (من الغضب، لا من التعب، فأنا ماازال شاباً قوياً معافىً) وأطلق عندئذ ذراعه.

– هنا! تستطيع أن تتبوّل هنا!

ترجّه فعلتي، لا يعرف دوافعها. ويغادره سكره، تتبدّد نشوة الخمر من رأسه، ويغدو أكثر وعياً بالأشياء من حوله. يرنو إلى وجهي في توجّس، كما ينظر إنسان إلى شخص مجنون، لا سيطرة له على ما يصدر عنه من أفعال، ثمّ يمشي إلى الجرف، ويقف هناك، وجهه إلى الماء، جسده يهتزّ من الانفعال. أتركه هناك، يصبّ اوساخه في مياه البحيرة، وألجأ إلى شجرة في العتمة، على جانب الدرب، أسند ظهري إليها. أتأمّل قامته الطويلة القاتمة تنتصب فوق صخور الشاطئ، مثل عمود مبتور، في مواجهة الامتداد الشاسع للماء تكتظّ به البحيرة. ألمح، بعد قليل، الحركة الخفيفة لذراعيه، يداه تعملان على ربط أزرار بنطلونه، فأمشي إليه. يترك الجرف، ويلتقيني عابساً.

– لماذا جررتني من هناك!؟ لو كان غيرك الذي فعلها..!

– أنا آسف.

(في الحقيقة أنا لست آسفاً، على الإطلاق، إلاّ أنّني لا أريد لعلاقتنا – التي كتمت عواطفي من أجل أن أجعلها تبدو طبيعية – أن تتوتّر الآن).



ابتسم له مصالحاً، غير انّ ملامحه المتجهِّمة لا ترتخي. ندنو من البيت، يهيمن علينا صمت ثقيل الوطأة.

- ألاَ تدع وجهك ينبسط قليلاً!؟ ماذا ستقولان عنّا إذا..!؟

- إنّهما نائمتان الآن.. ربّما امّك..

- إذن افرد وجهك.

يهزّ رأسه في يأس.

- انا لا ادري.. كيف اصبحت انت هكذا.. عنيفاً وحقوداً.. مع انّك كنت وديعاً في صِغرك!

- قلت لك إنّني آسف. ابتسم الآن ودعنا ننسى.

- المشكلة أنّني.. لا استطيع ان احمل لك في قلبي.. غير الحبّ.. يشهد اللّه. ولكنّك..!

- أوشكنا ان ندخل البيت، فدع وجهك..

ترتخي ملامحه قليلاً، إلاّ انّه لا يبتسم. لا بأس، هكذا أحسن على ايّة حال، فأنا لا اريد أمّي ان تلحظ شيئاً. ومثلما توقّع هو، نجدها في الصالة، تنتظر عودتنا (يبدو انّها غفت جالسة وحدها على الديوان، وتركت جهاز التلفزيون يعمل، بعد انتهاء البرامج، إذ نراها، عند دخولنا، تطفئ الجهاز بادية النعاس). تلتفت إلى عمّي باستنكار.

- بربّك قل لي، هذا عمل!؟ تتركاننا في أوّل يوم، وتذهبان وحدكما!؟ وإلى ما بعد منتصف اللّيل!

- ولكنّك انت التي أردت أن تستريحي.. بعد الفصل المضحك



الذي عملته بشأن تلك القبّعة!

- وحضرتك وجدتها حجّة!

اتركهما يتناقشان، أسبقهما إلى الممرّ، ثمّ أدخل غرفتنا، ولا أوصد الباب. (سأوصده في ما بعد. أمّا الآن فأريد أن أسمع ما يدور بينهما من كلام) وزوجتي نائمة تحت الغطاء، والصغير يغفو بجوارها، على الجانب البعيد من السرير. ولا تشعر بي زوجتي وأنا أغيّر ثيابي ثم أصعد لأستلقي على الفراش، محاذراً أن يلمس جسدي جسدها، خشية أن تستيقظ، فأنا لست في حالة نفسيّة تمكّنني من الردّ بهدوء على أيّة أسئلة، في مثل هذه الساعة. وأستمع إلى اللغط الدائر في غرفتهما، وراء بابهما الموصد، يستمرّ بعض الوقت، متقطّعاً وغير مفهوم، مع أصوات أشياء تسقط على الأرض، ارتطام جسد بعانق ما. ويخيّل لي أنّني أسمع ضحكاً (وهذا ليس عجيباً على أيّة حال، بين رجل وامرأة، كانا يتخاصمان قبل لحظة، على الخصوص حين يكون ثمّة سرير للنوم على مقربة). بعد دقائق يدهمه صرير سريرهما يخترق الجدران، ويمزّق قلبه، فيكرّر لنفسه، المرّة بعد المرّة، أنّ أمّه الآن هي زوجة لعمّه (حقيقة كريهة ما ارتضاها لحظة واحدة، ولكنّها حقيقة) وما يفعلانه تحلّله الأعراف وشرائع السماء، فإذا ضاجعها، في هذه الساعة، فهي زوجته، فماذا كان يشعر أبوك إذن!؟ وأيّ عذاب كان يفتك به، واقفاً، في عتمة الممرّ، تلك الليلة الفظيعة، صورتها لا تبرح ذاكرتك على الإطلاق، كأنك تشهدها اللحظة، أبوك يواصل سعاله بإلحاح يمزّق الحنجرة والصدر، لحظات طويلة، ثابتاً في مكانه، قبل أن يدخل عليهما الحجرة، وأمك تخطف، بعد ذلك، عائدة إلى غرفتها، حافية



القدمين، سمعها مرّة تقول لأبيه «طلّقني!» (كم أوجعته تلك الكلمة وكم كره أمّه ساعتها!) وأبوه واجم النظرات، يشير برأسه «والولد!؟» فتردّ عليه بقوّة امرأة عاشقة، لا يهمّها أيّ شيء آخر، في الكون بأسره، غير حضور الرجل الذي تهوى بجنون. «وما شأنك أنت بالولد!؟». وكلّ هذا بسبب هذا الخنزير عمّي، ينام معها الآن، وفق شريعة اللّه ورسوله، بعد أن كان يضاجعها وفق شريعة الحيوانات في الغابة، ولا يهمّ ذلك على أيّة حال، فاللّه غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، في نهاية المطاف، ولكنّني مخلوق صغير، تتحكّم فيه مشاعره المحتدمة، وأعصابه المشدودة، ولا قدرة له على الصفح والغفران. ويواصل السرير صريره الملعون، في هدأة البيت (من حسن حظّي أنّ زوجتي نائمة، لا تسمع صخب السرير، ولكن ماذا عن وجع الليالي القادمة!؟). ويهمد السرير أخيراً، وسوف يهمد عمّي الآن، مرتاح البال والجسد، وتغفو هي بجواره راضية، تبتسم في نومها، وترى أحلاماً بهيجة، في حين يؤرقني رأسي، يكتظّ بمئات العقارب.

أغادر السرير، أوصد الباب، ثمّ أعود إلى الفراش، فتفتح زوجتي أجفانها هذه المرّة، كأنّ يداً أيقظتها. «أنت رجعت!» وعيناها تلمعان في العتمة، ثم تطبق أجفانها، تدير ظهرها، وتمدّ ذراعها فوق الصغير، تغفو من جديد. (لا أظنّها ستتذكّر في الصباح أنّها استيقظت وسألت). أحاول - عيناي تحدّقان إلى فراغ السقف - أن أستعيد مشهد جلستنا في مشرب الفندق، لأتأمّل في سلوكه، في كلامه، معي ومع الآخرين - أدرسه عن قرب، كما يقولون - هذا الرجل الذي قوّض حياتي، إذ إنّني، في الحقيقة، لا أعرف الوجوه

العديدة لهذا المخلوق، الذي هو عمّي. وتلوح لي صورته في فراغ السقف، ينفخ دخان سيجارته بعيداً عن وجه المرأة، وأصابعه تداعب كأسه، وفي عينيه شرود لا يتلاءم مع مزاجه العابث، في العادة.

– الحياة، يا جماعة، مثل رحلة على ظهر سفينة مثقوبة!

(أقول لنفسي لعلّه سمع، أو قرأ، هذه الكلمات في مكان ما). ويضحك الرجل الممتلئ، الذي تلوح لي صورته هو أيضاً، يدخّن السيجار، بوجه منتفخ، قرنفلة حمراء في عروة سترته، كأسه في يده، وبجواره تلوح شديدة الوضوح، تجلس أخته السمراء، الأنيقة، ساقاها الطويلتان، الواحدة فوق الأخرى، تتدليان، عاريتين من الجوارب، لحمهما الصقيل المورّد، الخالي من أيّة شائبة، يلصف في ضوء المصابيح، وكأسها تستقرّ على سطح منضدة المشرب الطويلة، المقوّسة. أراها تأخذ جرعات صغيرة جداً من كأسها، كأنّها تتذوّق الشراب فحسب، بين وقت وآخر، ثمّ تعيد الكأس إلى مكانها، في حركة رشيقة، وتدخّن بإفراط. نحن جميعاً نجلس على مقاعد مشرب، عالية، وبلا مساند؛ أنا أجلس على يسار عمّي، والمرأة والرجل الثخين – تقول إنّه أخوها – يجلسان على يمينه، في مواجهة رجل المشرب، المشغول بتنظيف أقداحه، وتلبية طلبات الزبونات. (قال لي عمّي في ما بعد إنّه تعرّف إلى الرجل الثخين وأخته، بعد دخوله صالة المشرب بدقائق، وجدهما يبتسمان له بلا تحفّظ، يبحثان عن صحبة، والمشرب، في بداية المساء، مايزال خالياً من النّاس تقريباً، فدعاهما يشاركانه الشرب).

– أنت متشائم يا أستاذ!

ترنو الأخت إلى وجه عمّي، في مزيج من الإعجاب ودهشة الاكتشاف. (أهذه امرأة أخرى توشك أن تعلق في خيوط شباكه!؟ مع أنّه ما عاد ذلك الرجل النشط الذي كانه!).

- لا يا مدام، لا. أنا إنسان واقعيّ.

الرجل الثخين لا يقول شيئاً، يبتسم فقط، ويتبادل، أحياناً، مع أخته نظرات يصعب تفسيرها.

- ولكنّ الحياة، يا أستاذ، فيها أشياء كثيرة، جميلة وممتعة.

- هذه هي المصيبة يا مدام! كأنّ هناك من يريد أن يرانا نتعذّب!

يقهقه الرجل، وإن لم يفهم تماماً، كما يبدو لي، ما يرمي إليه عمّي بكلامه هذا. إلاّ أنّ الأخت لا تضحك، عيناها تبدوان أكثر اتّساعاً، وهي تحدِّق إلى وجه عمّي حائرة، ومندهشة.

- تقول مصيبة أن تمتلئ الدنيا بأشياء جميلة!

- في ظلّ موت يهدِّد بالانقضاض علينا في أيّة لحظة.

الانطباع المرح على وجه الرجل الممتلئ يتلاشى الآن. ويحيِّرني إصرار عمّي على إزعاجهما بالحديث عن الموت، ونحن نجلس لنشرب ونتسلى.

(إنّني أكتب الأشياء التي أتذكّرها، من جلستنا في مشرب الفندق، بهذه الصيغة. من أجل أن تكون الصورة أكثر وضوحاً).

- وما هو العمل، في رأيك أستاذ؟ نستسلم للأقدار؟

- لا، لا يا مدام. الاستسلام أكبر خطأ. الحل، طبقاً لفلسفتي في الحياة، هو أن ننتهز كلّ فرصة، من أجل أن نستمتع بمباهج الدنيا،



دون أن نفرض على أنفسنا قيوداً، من أيّ نوع، قبل أن ينتصر علينا ذلك الغول الّذي لا يرحم.

- تعجبني!

يرتخي وجه الرجل الثخين. الأخت تبتسم، وترنو إلى أخيها.

- تقول بلا قيود، يا عمّي!

يلتفت صوبي. يبدو مسروراً، لأنّني ابديت اهتماماً بكلامه.

- بلا قيود، يا عزيزي. بلا قيود من أيّ شكل!

(وهكذا أسمع من لسانه الكلمات التي تؤكّد إدانته، في نظري، وما كنت، في الحقيقة، بحاجة إلى ان اسمعه يتحدّث، عن فلسفته في الحياة، من اجل ان أعرف ايّ مخلوق هو). المرأة تشارك أخاها الضحك، هذه المرّة.

- يا جماعة، انا تعبت من الجلوس على هذا الكرسي، الذي يشبه الخازوق! تعالوا نستريح حول واحدة من تلك الموائد هناك.

ينزل الرجل الثخين عن مقعده المرتفع، ويحطّ على الأرض، حاملاً كأسه، إصبع السيجار السميك بيده الأخرى، ويتدحرج أمامنا صوب مائدة في الركن نجلس حولها، والحديث يأخذ، هذه المرّة، مجرى آخر، ماذا نعمل، ماذا نملك ولا نملك، واستفسارات من هذا القبيل، تصاغ بلباقة. الرجل وأخته يريدان أن يعرفا، غير انّهما، حين يطّلعان على طبيعة عمل عمّي، يصبحان أكثر تحفّظاً.

- بالمناسبة، ماذا تعمل المدام؟ أم أنّها سيّدة بيت تأمر وتنهى؟

- لا. أنا مدرّسة.



- تشرّفنا. إنّك تمارسين مهنة جليلة.

يبتسم لها عمّي، عيناه تلمعان.

ترنو إليه طويلاً. أخوها يقول إنّه تاجر اخشاب. والروّاد يتوافدون على المشرب، مع تقدّم الليل، دخان، وروائح خمور واطعمة، وضحكات، ولغط لا يتوقّف. وتظهر وجوه في مدخل صالة المشرب، يعرفها الرجل واخته، إذ ترتفع اذرع تؤشّر، وتلوح ابتسامات على الشفاه.

- اسمحا لنا. كانت جلسة ممتعة حقّاً.

الرجل ينهض، وتنهض الأخت، بعد أن تأخذ حقيبة يدها الصغيرة. وبعد ذلك يجلسان حول مائدة أخرى، مع رجال آخرين. وعمّي - متحاشياً النظر إليهما - يضحك بصوت خفيض. انظر إلى وجهه، كاتماً حقدي.

- أشوفك تضحك!

- إنّني أضحك من خيبةهذا القوّاد، والعاهرة التي معه!

احدّق إلى وجهه مذهولاً.

- يا عزيزي لا تندهش ابداً ممّا ترى في هذه الدنيا!

- أنت تقصد!

- لا هي بالمدرّسة، ولا هو تاجر اخشاب. وهي ايضاً ليست اخته. لعلّها زوجته، او عشيقته، جاء بها إلى هنا في موسم السياحة، من أجل ان يصطادا ثريًا (اشول) يستغلاّنه. غير انّهما اخطآ الطريق.



– وتقول لها إنّك تمارسين مهنة جليلة!

– هي مهنة جليلة فعلاً، ولكن قليلاً من النّاس يقدِّرونها حقّ قدرها!

يواصل ضحكته الشرِّيرة، أصابعه تداعب حافَّة الكأس.

– وكيف عرفت أنّها ليست أخته!؟

– لأنّه ينام معها، ولا أظنّ هذا الرجل ينام مع أخته، لا لأنّه إنسان عفيف، بل لأنّه – كما يبدو لي – ليس من ذلك الصنف.

(وأنت يا عمّي – أنت الذي فلسفته في الحياة أن يعيشها بلا قيود – من أيّ صنف يا ترى!؟) أتأمّله لحظة طويلة. كيف يفكِّر هذا الكائن!؟

– هذه كلّها افتراضات بالطبع.. كلامك على ممارسته الجنس مع المرأة التي معه، وكونه قوّاداً لها.

– لا، صدِّقني، هذه ليست افتراضات. كونه قوّاداً لها، أو لغيرها، شيء واضح. أمّا ممارسته الجنس معها، فثمّة تيّار خفيّ يربط بينهما، بوسعك أن تحدس بوجوده، من طبيعة النظرات والابتسامات التي يتبادلانها، تلك النظرات والابتسامات الحميمة، الخاصّة، والمتواطئة، التي لا يتبادلها غير ذكر وأنثى ينامان في فراش واحد.

عمّي يبدو مزهوّاً بما يعرف (أو يظنُّ أنّه يعرف). يأخذ جرعة طويلة من كأسه، وينظر إلى كأسي الساكنة على المائدة.

– لا أراك تشرب!



- إنّني أشرب.

اتناول جرعة صغيرة، غير انّني أترك الكأس تلامس شفتي لحظة طويلة، قبل أن أعيدها إلى المائدة، فيبتسم راضياً.

- شوف يا عزيزي. معرفتي بمثل هذه الأمور جاءتني من خبرتي الطويلة بالنِّساء، والمتزوِّجات منهنَّ بشكل خاصّ.

(بينهنّ امّي طبعاً، وهي في عصمة أخيك، قبل أن..!)

- ولكن أرجوك، لا تذكر شيئاً من هذا الكلام امام امك، فأسراري هذه أبوح بها إليك، لأنّني احبّك، وأريد أن تطلّع على أمور الدنيا، فالكثير منها مايزال خافياً عليك، لأنّك - مع الأسف - لا تخالط النّاس كثيراً.

يا عمّي، إذا كنت تحبّني، مثلما تقول، فأنا أكرهك كراهيتي لساعة النزع الأخير، وأمقت أسرارك، وقناعاتك، وفلسفتك في العيش! يا عمّي، أنا ألعن العالم الذي أنت رمزه وعنوانه، عالم القتلة والقوّادين، وانتظر متلهّفاً لحظة موتك، فمثلك مخلوق خطيئة أن يعيش بين النّاس، ولا يخدعنّك سلوكي - الظاهر الودّ - هذه الأيّام، فسوف تفاجأ مفاجأة عمرك كلّه عمّا قريب!



-١٣-

نزهة – على ظهر اليخت – في البحيرة، صباح اليوم التالي، إرضاءً لأمّي وزوجتي، اغضبهما سلوكنا، في الليلة السابقة؛ واتّفاق عائلي، في ما بعد، على اقتسام أيّامنا على البحيرة؛ النهار للترفيه عنهما، وعن الصغير، ونحن لنا الليل بأكمله. الاقتراح لعمّي (يريد أن يشرب كلّ ليلة) وهو يناسبني (أنا لست مدمن شرب، ولكنّ لي اسبابي). يوم، يومان، ثلاثة أيّام، وجلساتنا الليليّة تتواصل، في مشرب الفندق. الرجل الثخين، الذي يدخّن السيجار، وأخته/ زوجته/ عشيقته (لست أدري أيّهنّ هي!) ما عادا يشاهدان داخل صالة المشرب، إلاّ أنّهما لا يبرحان الفندق، نلمحهما، أحياناً – ونحن ندخل أو نخرج – جالسين في زاوية قصيّة، من البهو الواسع، يتهامسان مع كهل أبيض الشعر، بادي الثراء. وعمّي يصرّ، بخبث شيطانيّ، على التلويح لهما بيده، من بعيد، فيبتسمان له بتحفّظ، ثم يعاودان همسهما المريب مع صيدهما. معارف عمّي تتبدّل وجوههم، ولا تتبدّل تصرّفاتهم (فهم جميعاً يحبّون الاستمتاع، إلى اقصى حدّ، بالشرب، والأكل، وممارسة الجنس،

والحديث عن النِّساء، وفنونهنّ في الفراش، حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل، وعمّي يملك خزيناً من المعلومات، في هذا الميدان الرحب. كما أنّ لديه عدداً هائلاً من النكات الجنسيّة - لا أدري كيف جمعها تجعل أصحابه يضحكون حتّى تدمع عيونهم، وتنتابهم، أحياناً، نوبات من السعال). وهو لا يكشف لهم بالطبع عن وجوهه الأخرى، ولا يقاطعهم إذا تكلّموا، من أجل أن يكتشف، دروباً جديدة للكلام، يتجوّل فيها بِحُرِّيَّةٍ سكرانَ، كأسه في يده. ولكن ما هذا الذي يحدث لك أنت!؟ ما كنت تتصوّر أنّ معاشرتك للشيطان، ليلة بعد ليلة، سوف تهزّ، بعض الشيء، حقدك عليه، وتجعلك، في النهاية، تقع تحت تأثير سحره الملعون. وتكتشف أنّ من الصعب جداً على الواحد منّا أن ينهي حياة إنسان، تعرّف اليه وعاشره عن قرب - بصرف النظر عمّا إذا كان هذا الإنسان طيّباً أو شرّيراً - ما لم يكن هذا الواحد منّا معطوب العقل والمشاعر. وتتذكّر قصّة قرأتها مرّة (لا تتذكّر الآن كاتبها، ولا تحضرك كلّ تفاصيلها) عن رجل تكلِّفه منظّمة، أو جمعيّة، باغتيال إنسان (لأسباب سياسيّة على الأرجح)، فيعمل هذا الرّجل خادماً، في بيت الشخص المستهدف للاغتيال، من أجل ألاّ تثار الشبهات، عندما تجري عمليّة القتل، بعد ذلك، بهدوء. إلاّ أنّ هذا الخادم المزيّف، مع مرور الأيّام، يتعلّق بالرجل المحكوم، ويحبّه كما لو كان أباه، لا شخصاً غريباً، جاء هو من أجل أن ينفّذ فيه حكم المنظمّة، ببرود مهنيّ، فيتخلّى عن مهمّة قتله. ولا تتذكّر كيف تنتهي الحكاية، هل يعترف الرجل النادم بطبيعة المهمّة، التي دخل البيت من أجل تنفيذها، ويطلب الغفران من الإنسان الذي وثق به، ويهرب، بعد ذلك، بجلده؟ هل تعدّه المنظمّة، التي ينتسب إليها،



خائناً جباناً، فتصفّيه، ليكون عبرة لغيره؟ أنت لا تدري، فالنهايات مفتوحة لكلّ الاحتمالات. ليس هذا مهمّاً، على أيّة حال، المهمّ هو مغزى الحكاية. وتفزعني فكرة ان آلَفَ عمّي، وأن أميل إليه، واتخلّى بالتالي عمّا نويته منذ سنين. لهذا أتوقّف على الفور عن الخروج معه، ومشاركته جلسات شرابه المسلّية، حتّى ما بعد منتصف الليل. ويندهش هو بالطبع: يظنُّني زعلت منه لسبب من الأسباب، فيغدو أكثر رقّة معي. غير انّني أؤكّد له انّ عدم ذهابي معه إلى مشرب الفندق لا علاقة له بسلوكه معي، بل يرجع إلى تعب معدتي، وحجج أخرى أتذرّع بها، تساعدني زوجتي - أفرحها سلوكي الجديد، إذ يجعلني اتفرّغ لها وللصغير - غير أنّ أمّي، وان كانت عموماً لا تروق لها جلسات شرابنا الليليّة في الفندق، لا يبدو عليها الارتياح لانقطاعي المفاجئ عن مرافقة عمّي (لعلّها تتساءل ترى ما الذي يدور في رأس هذا الولد؟). وفي كلّ مساء، بعد ذلك - في الوقت الذي يجلس هو فيه في مشرب الفندق، يشرب ويثرثر مع معارفه، الذين يتجدّدون باستمرار، يروي لهم نكاته الجنسيّة الفاضحة، ويضحك ثملاً - اخرج انا لأجالس ابي على شاطئ البحيرة، أتأمّل قبّعته، الطافية على سطح الماء، وأستعرض حياتي معه صبيّاً، فأراه بظهره المعطوب، في وقفته المهانة، مستنداً إلى عصاه (ماازال أحتفظ بها باعتزاز، في خزانة ثيابي، وأحملها معي حين اخرج ليلاً، أمشي في شوارع بغداد) يسعل في عتمة الممرّ، وعمّي ينفرد بها في حجرته، واحسّ بدمعة أبي الوحيدة - دمعة اليائس - تسقط مثل شرارة تلسع خدّي، واسمع أيضاً، بعد كلّ هذه السنين، صوتها يقول له، في برود قاتل «طلّقني!»، وهو واجم النظرات. وأرى



جثته المنقوعة بالماء، بلحمها الغريب اللون، مطروحة على رمل الشاطئ، تحت وهج الشمس، نهشت وجهه الأسماك. وليلة بعد ليلة، أجالس أبي - لنستذكر عذاباته معاً - من اجل ان انمّي حقدي على عمّي وقد أوشك أن يهدأ قليلاً. وتمرّ الأيّام، وعمّي، في كلّ مساء، قبل الخروج من البيت، يحاول - لا يداخله اليأس - ان يغريني بالذهاب معه، ثمّ، بعد أن يتعب من محاولة إقناعي، يذهب وحيداً، بأمل أن أرافقه في الليلة التالية.

يوم آخر وتنتهي إقامتنا على شاطئ البحيرة، ونعود إلى بغداد. وفي هذا المساء الأخير، لا يقبل منّي عمّي أيّ عذر.

- لا تكسر بخاطره يا ولدي. اذهب معه هذه المرّة، أرجوك.

تحثّني أمّي، في حين تبتسم زوجتي متساهلة.

- سوف نجعلها ليلة ليلاء.. هذه الليلة الأخيرة!

يضع كفّه على كتفي بمودّة.

- أنت مصرّ على ذهابي معك؟

- طبعاً يا عزيزي، فالجلسة من دونك..

- طيّب، مثلما تحب. سوف نجعلها ليلة بلا مثيل!

وأذهب معه.

نحن الآن في مشرب الفندق، والليل يوشك أن ينتصف. عمّي يبدو منتشياً، كأسه في يده، يثرثر مع اثنين من روّاد المشرب، عازبين من النزلاء، يجلسان بجواره، أمام المنضدة الطويلة، بسطحها الصقيل، تستقرّ عليه زجاجات الشراب، والكؤوس، ومنافض الرماد



الملأى بأعقاب السجائر، وأنا أستمع إلى ما يتفوّه به من لغو، واجم النظرات، جالساً على الجانب الآخر. يلتفت ويتأمّل وجهي.

- هل أنت حزين لأنّنا سوف نغادر هذا المكان الرائع غداً؟

- ربّما.

- لكلّ شيء نهاية يا عزيزي، لكلّ شيء نهاية.

- أعرف.

- إشرب إذن، قبل أن تأتي هذه النهاية.

أرفع كأسي، فيضحك سعيداً، ثمّ يلتفت إلى صاحبيه، متابعاً حديثه معهما. فأعيد الكأس إلى مكانها.

- .. في البداية قلت لنفسي..

أسمعه يواصل كلامه.

- .. معاشرة النساء هي الحلّ! بعد ذلك، قلت لنفسي، لا، الشراب وحده هو الحل! ولكن، يا أخوان، يبدو أن ليس هناك حلّ!

لا أرتاح إلى نمط الكلام، الذي يدور بينه وبين صاحبيه، فمثل هذا الكلام لا يساعد على السكر بسرعة، ولكنّه لن يطيق الاستمرار في مثل هذا اللغو، وسوف يعود إلى سوالفه المضحكة بعد قليل (أصبحت أعرف الكثير من طباعه). أنزل عن المقعد المرتفع مطمئناً.

- اسمحوا لي. كان بودّي أن أجلس معكم وقتاً أطول.

يفاجأ عمّي بعزمي على مغادرته.

- ولكنّنا قلنا..!



- أنا آسف. أحسّ بصداع فظيع!

- وتتركني وحدي.

- ولكنّك لست وحدك.

امدّ يدي إلى جيبي.

- ماذا تفعل!؟ أنا أدفع الحساب!

(لا تضع دَيْناً في رقبتي! لا تصعّب الأمر عليّ!). أصرّ على دفع حسابي بنفسي. أرى عينيه ترنوان إلى وجهي، في حيرة وانكسار.

- تريدني أن أرجع معك إلى البيت؟

لا أرتاح لما يبديه من اهتمام (يبدو صادقاً) نحوي. اتمنّى لو كان مخلوقاً بلا وجه يحمل هذا الانطباع القلق، وهذه النظرات المشفقة.

- لا لا، أكمل أنت سهرتك مع الجماعة. فقط لا تفرط في الشرب.

وأحاول أن أبتسم.

- لا تخف يا عزيزي، فمهما شربت، فلن أسقط في البحيرة!

أحدّق إلى وجهه مشدوهاً. ترى ما الذي جعله يتفوّه بهذه الكلمات!؟ أودّعه وصاحبيه، وأغادر الفندق ساهماً.

*

زوجتي نائمة، وامّي تجلس وحدها، في الصالة، أمام جهاز التلفزيون. تفاجأ بدخولي عليها. تنظر في وجهي قلقة.

- لماذا رجعت وحدك يا ولدي!؟

- اصابني صداع.

- ولماذا لم يرجع هو معك!؟

- لم يشأ أن يفارق أصحابه. وانا أيضاً لم أرد أن افسد عليه سهرته.

اجلس بجوارها على الديوان.

- اذهب ونم في غرفتك.. مادمت..

- لا أستطيع النوم ما لم يهدأ الوجع.

ارنو إلى شاشة التلفزيون في شرود. تظنّني مهتمّاً بأحداث الفيلم، فتحكي لي موجزاً بالمشاهد التي مرّت، من أجل ان تشركني في اهتماماتها التافهة. اهزّ راسي بلا كلام، لا اصغي الى ما تقول. يمرّ علينا الوقت، ونحن نجلس على الديوان صامتين. أسمعها تضحك أحياناً، وترنو إلى وجهي، فأبتسم لها، ذاهل النظرات. ثم أنتبه إلى اختفاء الصور، والأصوات البشريّة، وأرى بياضاً منمّشاً على الشاشة، تصاحبه وشوشة مزعجة. تنهض أمّي، تطفئ الجهاز، تستدير، وتظل، بعد ذلك، واقفة، في وسط الصالة.

- كم ساعتك الآن؟

أنظر إلى ساعتي.

- تقترب من الثانية، بعد منتصف الليل.

تصيخ السمع إلى الأصوات في الخارج. السكون شبه تامّ، وراء الجدران، لا دندنة غناء، ولا وقع خطى تقترب.



- تأخَّر كثيراً!

- نعم، تأخَّر.

أراها تذهب إلى باب الدار، تفتحه، وتحدّق إلى فراغ الشاطئ، الهاجع في سكون الليل. تظلّ واقفة هناك فترة طويلة، ثمّ تترك الباب مشرّعاً على الليل، وتعود صوبي.

- لا أدري يا ولدي، ما إذا كان بوسعك..

أتأمّل وجهها المضطرب، تعصف به الهواجس. (أتعشقينه كلّ هذا العشق يا أمّي!؟ حتى هذه اللحظة تعشقينه!؟).

- سأذهب لأعود به.

أنهض من مكاني.

- أنا لا أريدك أن..

- سأذهب لأعود به إليك.

ترافقني إلى الباب، وجهها يبدو مستريحاً، بعض الشيء. أشعر بها ترقبني أبتعد عنها، ماشياً على الشاطئ المقفر، واقفة في مربّع الباب المضاء. لا ألتفت لأنظر إليها. سوف تغلق الباب، بعد قليل، وتجلس على الديوان، تنتظر أن أزفّ لها، بيدي، أنا ابنها المطيع، الفحل الهمام، زوجها!

*

وها أنت الآن تمضي وحيداً، وحيداً، على شاطئ البحيرة، في



هدأة ما بعد منتصف الليل، والدنيا من حولك نائمة، مستسلمة، ولا صوت غير همس الماء، يلامس صخور الضفاف، حتّى الأشجار تبدو لك غافية، أوراقها تتدلّى في سكون. وفي وسط هذا الصمت الفسيح، أسمع وقع خطاي بين ضجيج خواطري. ومن بعيد تدنو بناية الفندق، كتلة صمّاء، نوافذها الضيّقة، العديدة، طابقاً فوق طابق، مطفأة كلّها تقريباً، وبابها الواسع - يبدو صغيراً، من هذا البعد - يتدفّق منه الضوء، ولا تلوح فيه اقامة إنسان. (أما يزال عمّك يشرب حتّى هذه الساعة!؟ يريد أن يجعلها ليلة ليلاء حقّاً! فلتكن.. فلتكن!) اقترب من المكان، تطفو فيه قبّعة أبي. اقف على الصخور، أرنو إليها تنتظر ساكنة، فوق وجه الماء. ولا أتوقّف على الجرف طويلاً، بل امضي متمهّلاً في اتجاه الفندق. اخيراً ألمح هيكل رجل يتحرّك، في ضوء المدخل. لعلّه هو، قرّر العودة إلى البيت، بعد أن نضب الكلام، وانفضّ الصحاب. نعم، إنّه هو، بقامته الطويلة، المتأرجحة. أراه يترنّح، واقفاً في مكانه، بعض الوقت، كأنّه لا يرغب في مفارقة الفندق، وبعد ذلك يخطو خارجاً من رقعة الضوء، ليدخل في عتمة الدرب، ترقّطه أضواء مصابيح الأرصفة، بين مسافة وأخرى. فأترك، عندئذ، الطريق المرصوف، وأصعد امشي على العشب، مستتراً بظلال الأشجار وجذوعها، وقع خطواتي الحذرة يموت في التربة الرخوة، والعشب النديّ. أرقبه يدنو ببطء، قامته الطويلة غير متوازنة الحركة، يمشي قليلاً ثم يتوقّف، متمايلاً، يتلفّت حواليه، ثم يمشي من جديد. أخفي نفسي، وراء جذع شجرة، على كتف الطريق، وأتركه يتقدّم، يدندن حيناً، وحيناً يكلّم نفسه، ويضحك (في حياتي لم اره ثملاً، بهذا الشكل!)



يغدو امام الشجرة تقريباً. يتوقّف. أرى يديه تبحثان عن شيء في جيوبه. يتابع، بعد ذلك، مسيرته المتعثّرة، وأسمع صوته النشوان يردِّد اغنيته المألوفة. يتقدم، فأتبعه، جاعلاً بيني وبينه مسافة أمينة، ماأزال أمشي على كتف الطريق. لأبتعد به عن الفندق في البداية. أمشي وراءه مثل آلة مشحونة - كلّ هذه السنين التي مرّت، منذ مقتل أبي - من أجل أن تقوم هذه الآلة بعمل وحيد. يوقظني بغتة صوت منبّه سيّارة، حادّ النبرة، تحمله الريح من الطريق الصحراويّ، وراء البيوت. يظلّ صوت المنبّه يشقّ صمت الليل، طويلاً، ملحاحاً، نافد الصبر، كأنّ قوّة خفيّة تصيح بي، من وراء الحجب، أن توقّف ولا تقدم على ما نويت عليه، فذلك لن يعيد الموتى. ليذهب عمك إلى جهنّم، هو وخطاياه، وكلّ ما فعله بك وبأبيك. أمك تشاركه آثامه، فلماذا لا تحقد عليها هي أيضاً!؟ أراه يقترب من المكان، الذي تطفو فيه قبّعة أبي، فوق الماء. اوشك أن أذهب إليه، وأكلّمه؛ اقول له أنت تأخّرت عن العودة إلى البيت، فقلقنا عليك، وجئت أبحث عنك. إلاّ أنّني أتريّث، إذ أراه يميل في خط سيره، متّجهاً صوب صخور الشاطئ. وبرغم سكره الشديد فهو يخطو بحذر، فوق الصخور، خشية السقوط في الماء. أشاهده، بعد ذلك، يقف متأرجحاً، بالقرب من حافة الجرف، وجهه إلى البحيرة. وألمح ذراعيه تتحرّكان. ترى لماذا يصرّ، هذا الكائن الحقير، على أن يفرغ ما في مثانته من أوساخ، في هذا المكان بالذات!؟ لعلّه يقوم بهذا العمل الشنيع كلّ ليلة! ويشتعل دمي، فأعبر الطريق إليه مسرعاً. وقبل وصولي أسمع خرير إدراره النتن، في مياه البحيرة. أنزل بيدي على كتفه، فيستدير بجذعه مترنّحاً، اداته الملعونة خارج فتحة



البنطلون، ماتزال تخرخر ماءها، وتبلّل قماش سرواله، وفردتي حذائه، وصخور الشاطئ. يباغته ظهوري المفاجئ أمامه، في هذا المكان، غير أنّ وجهه يشرق فرحاً إذ يراني.

- هذا أنت.. يا ولدي!.

*

وينفجر الماء صاخباً، في هداة الليل. اتلفّت حولي فزعاً، مصعوقاً، ولكن لا أحد، خارج الجدران، على امتداد الشاطئ، والماء مايزال يضطرب، وقبّعة أبي تهتزّ، في مكانها، من بعيد. وعندما يلتئم وجه البحيرة - تتوالد، ثم تموت فوقه الفقاعات - وتسكت، أخيراً، القرقرة المكتومة، تحت الماء، أرى قبّعة أبي تغوص في البحيرة، كأنّ يداً - لعلّها يد أبي - جرّتها معها، إلى سكون الأعماق.



تصميم الغلاف: نجاح طاهر

يا عمّي، إذا كنت تحبّني، مثلما تقول، فأنا أكرهك كراهيتي لساعة النزع الأخير، وأمقت أسرارك، وقناعاتك، وفلسفتك في العيش! يا عمّي أنا ألعن العالم الذي أنت رمزه وعنوانه، عالم القتلة والقوّادين، وأنتظر متلهّفاً لحظة موتك، فمثلك مخلوق خطيئة أن يعيش بين النّاس، ولا يخدعنك سلوكي - الظاهر الودّ - هذه الأيام، فسوف تفاجأ مفاجأة عمرك كلّه عما قريب!



